مكتبة
كلية بيرزيت
التاريخ

قصص نابوليون

بقلم جورجي زيدان

مجموعة فكاهية ادبية تاريخية

تشتمل على قصص شيقة ونوادر طلية تتعلق

باعظم رجل عرفه التاريخ

مجموعة من أوثق المصادر

SPC
DC
203.8
.D512
1931
RBK

H.A.F
6/11/9

معربة

بعناية ادارة الهلال

كلية بيرزيت
٤١٥
BEERZEIT COLLEGE

مطبعة الهلال سنة ١٩٣١

Digitized by Birzeit University Library

كلمة

ليس ألذ لدى القارىء من أحاديث الرجال العظام وتواريخهم وأعمالهم وكل ما يتعلق بهم . وقد جمعنا في هذا الكتاب عدة قصص ونوادر طلية شيقة من أدق المصادر وأوثقها عن نابوليون العظيم - ذلك الرجل الذي كان يتصرف بالتيجان مثل ما يتصرف اللاعب بحجارة الشطرنج

وان مزية هذه المجموعة هي في ان كل ما فيها حقيقي مثبت من الوجهة التاريخية. ومع ذلك فغرابته ليست بدون غرابة ما انتجته مخيلة اعظم الروائيين وأبعدهم تصوراً

ادارة الهلال

Digitized by Birzeit University Library

كلمة

ليس ألذ لدى القارىء من أحاديث الرجال العظام وتواريخهم وأعمالهم وكل ما يتعلق بهم . وقد جمعنا في هذا الكتاب عدة قصص ونوادر طلية شيقة من أدق المصادر وأوثقها عن نابوليون العظيم - ذلك الرجل الذي كان يتصرف بالتيجان مثل ما يتصرف اللاعب بحجارة الشطرنج

وان مزية هذه المجموعة هي في ان كل ما فيها حقيقي مثبت من الوجهة التاريخية. ومع ذلك فغرابته ليست بدون غرابة ما انتجته مخيلة اعظم الروائيين وأبعدهم تصوراً

ادارة الهلال

Digitized by Birzeit University Library

لمحة تاريخية

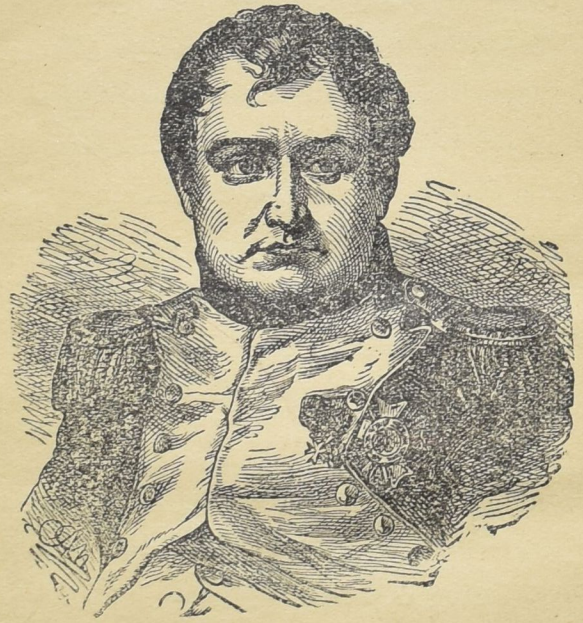

نابوليون بونابرت (١٧٦٩ – ١٨٢١)

هو عمدة القواد ومثال المفتتحين يغني ذكره عن نعته . ولد في ١٥ اغسطس (آب) سنة ١٧٦٩ في اجاكسيو من جزيرة كورسيكا من جزر البحر المتوسط وكان والده محامياً واسمه كارلو بونابرت

ولما بلغ العاشرة من عمره أدخله والده في المدرسة الحربية في بريان فقضي خمس سنوات أظهر فيها من النجابة والذكاء وحدة الذهن ما ميزه عن سائر رفاقه ولا سيما فى العلوم الرياضية . وقد حكى

Digitized by Birzeit University Library

عنه بعض اترابه انه كان على صغره وفقره كبير النفس عزيزها مغرماً بمطالعة أقاصيص الرجال العظام لا يحب الانشاء المنمق بزخرف الكلام . وكان لعزة نفسه لا يحتمل عقاب الاساتذة فانهار الاستاذ كان يوقعه في حالة هستيرية لشدة التأثر

وكان يشغل نفسه أيام الفراغ من الدرس ببناء الحصون والقلاع من الثلج يمثل بها أحيانا هيئة هجوم أو دفاع مع رفاقه التلامذة فيعجبون لمهارته في فوزه عليهم مدافعاً كان أو مهاجماً

وفي سنة ١٧٨٣ كان في جملة التلامذة العشرة الذين وقع عليهم الانتخاب ليتموا دروسهم في مدرسة باريز الحربية فدخلها وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ولكنه كان في تعقل الرجال وادراكهم /

ومما يؤثر عنه انه بعد دخوله تلك المدرسة ببضعة أشهر كتب تقريراً طويلا قدمه لرئيسها يشير فيه الى ما شاهده فيها من المبالغة في بذخ التلامذة وترفهم وكثرة الخدم الذين يقومون فى خدمتهم ومما قاله : « اذا اعتاد هؤلاء القيام بخدمة أنفسهم بانفسهم يشبون وقد تعودوا مقاومة العوارض الجوية من الحر والبرد وتنمو فيهم الشجاعة اللازمة لكل رجل محارب » وقد نظرت عمدة المدرسة في تقريره بعين الاعتبار

ولم تمض سنة من دخوله تلك المدرسة حتى نال رتبة ملازم ثان في فرقة المدفعية لما ظهر من اجتهاده وانكبابه على الدرس والتنقيب وممارسة الحركات العسكرية. ويقال ان فرقته نزلت زمناً في اوكسون من اعمال بورغنديا وكان يتردد على بيت رجل يتعاطى الحلاقة فر

بتلك المدينة بعد عدة سنين وقد صار جنرالا فقصد منزل ذلك الحلاق فلقي امرأته هناك فسألها اذا كانت تذكر ضابطاً صغيراً اسمه بونابرت كان يتردد عليهم فأجابت : « نعم أذكره ولكنه كان فظاً متعجرفا لا يبرح منفرداً في غرفته لا يخاطب أحداً » فقال لها : « ولكن يا سيدتي لو أني قضيت وقتي كما تريدين حضرتك ما استطعت قيادة جيش ايطاليا الآن »

ثم كانت الثورة الفرنسية بعواصفها وتيارها فترقى بونابرت في أثنائها الى رتبة قائمقام وكانت الجمهورية في ضيق شديد مما حل بها وثارت مدن مرسيليا وليون وطولون فسار بونابرت في جملة من سار لاخماد تلك الثورة في طولون وأظهر في هذه الحملة ما أوجب اعجاب رفاقه الضباط به فترقى على أثر ذلك حتى صار قائداً عاما لفرقة المدفعية في جند ايطاليا . وكتب عنه الجنرال دومربيون الى باريس يقول : « ان نصرنا كان موقوفا على مهارة قائد المدفعية »

ثم سار في جيش عين لاخماد ثورة الملكيين في باريس سنة ١٧٩٥ فافلح في تلك الحملة حتى أجرى الدماء وأسكن الثورة ولم يكن قائداً عاما ولكنه نال على أثر ذلك رتبة قائد ثان لجيوش فرنسا الداخلية

وفي السنة التالية نال رتبة قائد عام لجنود ايطاليا . وفي تلك السنة تزوج بجوزيفين الشهيرة بالجمال والذكاء وهي أرملة الجنرال بوهارنيه أحد قواد الفرنسيين وكان مولدها في بيت حقير ولكن العناية قدرت لها الارتقاء الى اوج السلاطين ولو لم تقض عليها حالها

Digitized by Birzeit University Library

من العقم ان يطلقها بونابرت بعد ذلك بسنين ويتزوج بابنة ملك النمسا كما سترى لتمت لها السعادة

وفي تلك السنة (١٧٩٦) سار بونابرت للمرة الاولى قائداً رئيسياً لحروب ايطاليا واستعرض جنوده قبل السفر فاذا هم في حالة الضنك من الجوع والعري فخاطبهم بقوله: «ايها الجنود. أراكم عراة جائعين وأعلم ان لكم على الحكومة حقوقا ولكنني أعلم ايضاً انها لا تستطيع القيام بادائها فها اني سائر بكم الى اخصب الارضين وسوف تفتحون مدناً وتضعون أيديكم على خزائنها فتنالون الفخر والمجد والثروة معاً. فيا جنود ايطاليا هل يعوزكم بعد ذلك بسالة او ثبات» وكأنه قال لهم ان الديريكتوار (الحكومة الفرنسية) في باريس لا يرتكن اليها ولا يعتمد عليها فاسعوا بانفسكم فيما تحتاجون اليه من اللباس والطعام

وسار بذلك الجند وكان فوزه في تلك الحملة تاماً وكانت اول حملاته. فاستبشرت فرنسا به وسارت أعماله على ألسنة الناس سير الامثال والحكم وكلهم معجب بشجاعته واقدامه على صغر سنه. ومما يؤثرونه عنه انه كان يقول لجنده: «ان عدوكم لا يلبث ان يرى بطشكم حتى يفر هاربا فتعقبوه ومزقوه اربا واسحقوه سحقاً». وكان لكلامه هذا في جنده تأثير أشبه شيء بتأثير السحر اذا كان للسحر تأثير. فكان ينقض على عدوه انقضاض الصاعقة وكنت تراه اذا هاجم اليوم هذه المدينة وفتحها لا يمكث ريثما يستريح ولكنه يواصل السير والهجوم على غيرها وما زال كذلك حتى افتتح سائر ايطاليا وقهر جنود النمسا وانتهت تلك الحرب في السنة التالية بعقد

المعاهدات مع النمسا وبروسيا وسكسونيا وغيرها

وقد قيل ان ملك النمسا كتب في جملة بنود المعاهدة ما مفاده «ان امبراطور النمسا يعترف بالجمهورية الفرنسية» فقال بونابرت للمعتمد النمسوي: «امح هذه الفقرة لان الجمهورية الفرنسية ظاهرة كالشمس في رابعة النهار لاتخفى الا على الاعمى ولنا وحدنا ان نقيم أي نوع من الحكومة اردناه ملكياً كان أم جمهورياً». ويستدل من قوله هذا على انه كان ميالا الى الاستبداد بالحكم والغاء الجمهورية

وعاد بونابرت من تلك الحملة الى باريس وقد رفع شأن الدولة الفرنسية وعزز سطوتها. وقد يعجز القلم عن استيفاء ما كان من احتفاء الباريسيين به اذ لم يكن يمر في شارع أو حي الا وتعلو فيه الضوضاء من أصوات المتهللين والمحتفلين حتى صار يفضل العزلة والانزواء في منزله تخلصاً من ضوضائهم

وفي منتصف سنة ١٧٩٨ وجه مطامعه نحو الديار المصرية يريد افتتاحها واستخراجها من أيدي الامراء المماليك لتسهل عليه الطريق الى الهند تذليلا لانكلترا. فاجتمع برؤساء الحكومة (الديريكتوار) وشاورهم في الامر فلم يوافقوه فألح عليهم وتهددهم بتقديم استعفائه فاذعنوا لما أراد فسار بعمارته من طولون في مايو (ايار) من تلك السنة ففتح الاسكندرية ودخل الديار المصرية حتى وصل القاهرة ونازل المماليك في امبابه قرب الاهرام العظيمة وكانت لهم موقعة هائلة خاف فيها على جنده فوقف بازاء الاهرام وخاطبهم قائلا: «ان أربعين جيلا من الناس ينظرون اليكم من قمم هذه الاهرام» فثارت الحمية في رءوسهم وأبلوا بالمماليك وردوهم على أعقابهم فاستتب له

Digitized by Birzeit University Library

الامر وأقاموا في هذا القطر ثلاث سنوات وساروا في غضونها لافتتاح سوريا ففتحوا يافا بعد حصار طويل وكان فيها حامية من الاتراك وغيرهم عددهم أربعة آلاف فسلموا على شرط الابقاء على حياتهم. فاقتضت سياسة بونابرت الحربية قتلهم جبراً في سهل رملي خارج يافا. وهي نقطة سوداء في تاريخ هذا القائد العظيم وقد نال جزاء هذا العمل لما سار الى عكا فان حاميتها لما علمت ما تم لحامية يافا صممت على الثبات الى آخر نسمة من الحياة فوقف الفرنسيون عند أسوار عكا وفيها أحمد باشا الجزار فحاصروها شهرين فامتنعت عليهم وساعدتها عمارة انكليزية من البحر تحت قيادة الاميرال السير سدني سميث فعادوا على أعقابهم وقد تفشى فيهم الوباء بما أفسدوه من الهواء بجثث قتلاهم المساكين خارج يافا /

وكان الاميرال نلسون الانكليزي قد جاءهم على أثر دخولهم مصر فحطم عمارتهم تحطيما بابي قير ففشلوا وضعفت آمالهم

وحصل في فرنسا أمور الجأت بونابرت الى الذهاب من مصر خوفاً من خروج حكومة فرنسا من يده فعهد بالقيادة في مصر الى الجنرال كلابر وكان من أحسن قواده وابحر من الاسكندرية سراً

أما كلابر في مصر فقضى بطعنة من حلبي يقال له سليمان. فخلفه الجنرال مينو وهذا لم تطل مدة قيادته فخرج بجنده من مصر سنة ١٨٠١ منسحباً انسحاباً قانونياً بسعي انكلترا وقوة الجنود العثمانية

وبعد وصول بونابرت الى باريس بقليل تجددت انتخابات حكومتها فتألفت القنصلية من ثلاثة قناصل أكبرهم نابليون بونابرت. ومن هنا يجب أن ننظر الى بونابرت نظرنا الى حاكم نافذ السلطان

لانه كان نافذ الكلمة على رفيقيه كأنه هو الحاكم المطلق وان تكن مظاهر أعماله باسم الجمهورية الفرنسية. غير أنه كان هو وحده الجمهورية برمتها حتى إن رجال الحزب الملكي كانوا ينتظرون منه اعادة حكم البوربون الى فرنسا. أما هو فكان حريصاً على اجتناء ثمرة أتعابه لنفسه

وأول شيء باشرته القنصلية هذه المرة مخابرة النمسا وانكلترا بشأن المعاهدات. فأجاب الاثنان سلباً فاضطر الى الحرب ولكنها انتهت بعقد المعاهدة معهما. أما معاهدة انكلترا فلم تمكث طويلا لانها كانت تقضي عليها باخلاء مالطا ولم تخلها فشق ذلك على بونابرت وتهدد انكلترا فشهرت عليه الحرب واتحدت معها دول أخرى وهي أسوج وروسيا والنمسا وكان في عزم نابليون أن يقطع خليج المانش ويهاجم انكلترا فارتعدت تلك الجزيرة وأخذت تتأهب للدفاع

وقبل الشروع في الحرب قام الفرنسيون قومة واحدة يطلبون جعل مملكتهم امبراطورية وانتخبوا نابوليون بونابرت امبراطوراً عليهم وتوجوه مع امرأته جوزيفين في دسمبر من تلك السنة. فدخلت سنة ١٨٠٥ والفرنسيون فرحون بامبراطورهم يتأهبون للحرب. وفي أواسط اغسطس زحف بجيشه الجرار وقواده العظام وكان تعداد تلك الحملة نحو ثلثمائة الف مقاتل فكانت موقعة اولم ثم اوسترلتز فانكسرت الجيوش النمسوية وانسحب الروسيون وانعقدت معاهدة برسبرج في ٢٠ دسمبر وكان النصر تاماً للفرنسيين إلا ان الاميرال نلسون الانكليزي حطم عمارة كبيرة كانت للفرنسيين

Digitized by Birzeit University Library

والاسبان في ترافلغار ولم تعد تقوم للفرنسيين قائمة في البحر من ذلك الحين وهكذا انتهت تلك الحملة

وفي سنه ١٨٠٦ اتحد الانكليز مع بروسيا وأسوج وعقدوا محالفة لمحاربة فرنسا ولكن الفرنسيين فازوا في هذه الحرب أيضاً حتى دخل نابوليون مدينة برلين ظافراً فازداد فخر الفرنسيين ولكنهم خسروا جانباً عظيما من رجالهم . على ان ذلك لم يكن ليبغضهم بامبراطورهم . ومما يحكى ان نابوليون لاقى امرأة من نساء الفلاحين في فرنسا كانت مسرعة لمشاهدة الامبراطور فقال لها : « وما الذي يحملك على مشاهدته وهو لم ينفعكم في شيء وانما انقذكم من شر ورماكم في شر اعظم . كنتم تحت سلطة البوربون فصرتم تحت سلطته » . فاجابته المرأة : «لا بأس من ذلك لان نابوليون ملكنا نحن وأما البوربون فكانوا ملوكا للاشراف » . اما روسيا فعادت صفر اليدين واضطرت لعقد معاهدة الصلح أيضاً

فعاد الفرنسيون سكارى بما أوتوا من الفوز وهذا أعلى ما وصلوا اليه من درجات الفخر والسؤدد لانهم ذللوا معظم دول أوربا

وفي سنة ١٨١٠ طلق نابوليون امرأته جوزيفين لانها لم تلد له ولداً وتزوج بماريا لويزا ابنة الامبراطور فرنسيس ملك النمسا وفي السنة التالية جاءه منها غلام لقبوه يوم ولادته بملك رومية

وفي سنة ١٨١٢ جرد نابوليون جيشاً جراراً وسار به لمحاربة روسيا ومهاجمة موسكو عاصمتها اذ ذاك وكان عدد ذلك الجيش خمسمائة وخمسة وسبعين ألفاً من الرجال والفاً ومائتي مدفع فدخل حدود المملكة

الروسية في يونيو من تلك السنة فسار الفرنسيون على عجل يريدون مهاجمة الروسيين على حين غفلة فالتقوا بهم في سمولنسك فظهروا عليهم فتقهقروا فتعقبوهم حتى وصلوا بورودينو فأتتهم نجدة فعادوا على الفرنسيين وحاربوهم فتقهقر الروسيون فتتبعهم الفرنسيون حتى أطلوا على مدينة موسكو عن بعد فسروا وابتهجوا لتيقنهم بافتتاحها عنوة وما زالوا حتى دخلوها فاذا هي خالية من السكان وفيها القصور والبنايات والخيرات من المصنوعات الثمينة وغيرها فعكفت العساكر على النهب والسلب . وفيما هم في ذلك اذا بالنيران قد انتشبت في أربع جهات العاصمة ولم ينتبهوا الا وقد كادوا يذهبون فريسة لها فعلموا ان اخلاءها انما كان مكيدة لهم ففروا منها ولم يصدقوا انهم نجوا من الحريق وكان ذلك سبباً لفشلهم فشلا لم يذوقوه قبل ذلك الحين . من تلك الساعة بدأ انحدارهم من ذروة الفخر والمجد . فكتب نابوليون الى القيصر يطلب اليه الصلح فأجابه « انه لا يمكنه المخابرة إلا اذا خلت أرض الروس من الفرنسيين جملة » . فانسحب الفرنسيون من روسيا بحالة الضنك الشديد مما قاسوه من البرد القارس لمرورهم على الجليد حتى مات جانب عظيم منهم من شدة البرد

ولم يكد الجند الفرنسي يعود من تلك الحرب الهائلة حتى نهضت دول أوربا وتحالفوا على محاربتهم حرباً نهائية تخلصاً منهم وكانت هذه هي المحالفة السادسة التي تحالفتها دول أوربا ضد الفرنسيين (سنة ١٨١٣) فاجتمع من الجيوش المتحالفة نحو من أربعمائة الف مقاتل في هولاندا وعلى ضفاف الرين وابتدأت الحرب في أوائل سنة ١٨١٤ فأظهر الفرنسيون بسالة وثباتاً جديرين بهم ولكن الحرب كانت

Digitized by Birzeit University Library

هائلة والعدو كان عنيداً . واتفق وهم فى حروبهم ان الاهلين في باريس اختلفت آراؤهم وقاموا يريدون تنصيب البوربون فاغتنم العدو تلك الفرصة وسار جانب منهم الى باريس وهاجموهم فعلم بونابرت فكر يريد الدفاع عنها فعلم وهو في الطريق ان العدو قد دخلها عنوة فوقع في اليأس فعرضت عليه الدول المتحالفة أن ينسحب بألقابه الى جزيرة البا وتكون عطية له مع أربعمائة من رجاله الخصوصيين وما يحتاج اليه من النفقات فاضطر للقبول بذلك فسار على رغمه وتولى عرش فرنسا لويس الثامن عشر . غير انه لم تمض سنة حتى عاد نابوليون وتولى الامبراطورية وأزل لويس

ودخلت سنة ١٨١٥ التي حصلت فيها موقعة واترلو الشهيرة التي لا ينساها المؤرخون ولا سيما الانجليز منهم لانها كانت القاضية بسقوط رجل فرنسا العظيم نابوليون الاول ونفيه الى جزيرة القديسة هيلانة . وكانت تلك الموقعة بين نابوليون وانكلترا قضت فيها العناية بانكسار الفرنسيين وإلقاء القبض على أمبراطورهم والحكم عليه بالنفي الى جزيرة القديسة هيلانة قضى فيها ست سنوات ومات في ٥ مايو (ايار) سنة ١٨٢١ وقد قال الذين حضروه ساعة وفاته ان أفكاره لم تبارح فرنسا ولسانه لم ينفك عن ذكرها وذكر ولده الذي كان كل رجائه فيه وجنده الذين كثيراً ما قادهم في الحروب والانتصارات . ويتخلل ذلك ذكر العناية الالهية التي بيدها الحياة والموت والرفعة والضعة .

وكان من القواعد المتبعة عنده الثبات حتى قال « ان الثبات أساس النصر » ومنها أيضاً قوله « ان من لم يتمم عملا كانه لم يبتدىء به » وكان يستاء مما يجري عليه الناس من مراعاة الخواطر والمقامات

فقال « يجب أن تكون حالة الانسان مرآة قواه » . وكان كثير الاعتماد على نفسه محباً للحقائق كارهاً للاقوال النظرية التي لا يمكن اخراجها الى حيز الفعل . وكان يقول عندما يعرضون عليه أحداً لتوليته بعض المناصب « أريد رجلا أكبر رأساً وأصغر لساناً من هذا » ولم يكن يميل الى شقشقة اللسان ولا فصاحة الكلام أو بلاغته وكان يقول « ان في مجلس الاعيان اناسا كثيرين أفصح مني لساناً وأحسن بياناً ولكني أكت اقمعهم بكلمتين لاتخرجان عما هو في حد قولنا اثنان واثنان أربعة » . وكان اذا اعتذر أحد أمامه عن اتمام عمل بأنه عمل النهار كله ولم يتمه يقول له « ألم يكن عندك ليل » . ومن أقواله « ليس في قاموسي كلمة مستحيل » وغير ذلك مما جرى مجرى الامثال والحكم

نابوليون والنساء

سجلات تاريخية مجهولة

لم يتفق أن كتب المؤرخون عن أحد العظماء بمقدار ما كتبوه عن نابوليون بونابرت ولا بدع اذا كثرت الكتب الضخمة الحاوية حاله وأخبار حروبه فانه لم يقم بين البشر رجل قام بما قام به من الحروب العظيمة وما ناله من الانتصارات الكبيرة حتى صار اسمه معروفاً عند جميع الناس

على أن شهرة هذا الرجل قائمة بحروبه العديدة وقلما يعلم الناس شيئاً عن أحوال معيشته الخاصة ولذلك رأينا أن نورد هنا صفحة من

Digitized by Birzeit University Library

تاريخه نجمل بها أخبار غرامه وما وقع له من الحوادث مع الجنس اللطيف

عرف نابوليون الحب بقوله « تسلية الرجل الكسول » ولعله نطق بهذا قبل ان يفتنه سحر العيون اذ المعروف أنه لم يتنقل أحد بين الحسان بقدر ما تنقل نابوليون بين فاتنات الفرنسيس

كان نابوليون في حداثته يتجول في شوارع باريس ومرسيليا بحالة أدل على الفقر منها على اليسر فقد كانت نعلاه باليتين وثوبه رثاً ومرآه يدل على العسر والضعة . ولم يكن له من الجمال ما يشفع له لولا خصل شعره المتدلية على منكبيه . ومع ذلك ذكر المؤرخون ان الكثيرات من النساء عشقنه لجاذبية غير مدركة فيه . ولعل حياءه وغمامة الحزن التي كانت غالباً تعلو محياه مما كان يجذب اليه القلوب . ويقال انه لما كان مقيما بفالنسة وهو في السادسة عشرة من عمره عشقته كثيرات من أجمل فتيات المدينة ولكنه لم يفتتن الا بواحدة منهن تدعى كارولين كولومبيه . وقد قال عنها في كبره انه « لم يكن يومئذ في العالم اثنان يفوقانها سعادة فقد كنا نتمتع بحب طاهر لم يحلم بمثله أحد . . . وكثيراً ما كنا نمضي الى الحدائق والبساتين فنتسلق الاشجار معاً ونأكل الكرز وكثيراً ما كنا نقضي أياماً كاملة على هذه الصورة ونحن بعيدان عن ضجيج الناس وأصواتهم »

ولكن السنين أنست نابوليون غرامه هذا فافتتن بحب غادة حسناء من جزيرة كورسيكا وأحبته هي أيضاً ولكنه كان شديد الغيرة حتى انه حظر عليها أن تبتسم لاحد من الشبان فلما رأت منه ذلك انقلب حبها الى كره شديد وحاولت أن تتخلص منه فوضعت

له السم في النبيذ وفي مساء ذلك اليوم كان نابوليون اقرب الى الموت منه الى الحياة

وبعد مدة وقع في غرام امرأة تدعى مدام پرمون وكانت كهلة تكبره بعشرسنوات ولكنه ولع بها ولعاً شديداً ولم يكن يهنأ له عيش الا بمجالستها . ولما طلب منها ان تتزوجه أغرقت في الضحك قائلة : « انك تضحك الناس عليك فانني في سن أصلح معها أن أكون لك أما من أن أكون زوجة . فاقلع عن هذا الحب الذي يجعلك أضحوكة بين عارفيك » . فانصرف نابوليون من لدنها وقد عزم أن ينساها

وبعد بضعة أيام أحب ممثلة شهيرة تدعى مونتانسيه وكانت اكبر من أمه سناً حتى قيل انها كانت قد تزوجت لاول مرة قبل ان يولد نابوليون بثلاثين سنة . وذكر باراس أن عمرها يومئذ كان سبعين سنة ! الا أن نابوليون ما عتم أن هجرها عازما ان ينصرف الى طلب المجد والشهرة تحت ظلال السيوف

قال أحد الكتاب ان نابوليون أساء الى كثيرات من النساء اللواتي أحبهن فقد كان يتودد اليهن خاطباً ودهن فمتى تمكن حبه من قلب امرأة هجرها ولم يبال بيأسها وقنوطها . يدلك على ذلك ما وقع له مع مدام فالسكا الشهيرة وكانت ذات جمال رائع فانه أراد ان يتقرب منها ولكنها كانت تنفر منه فغضب منها غضباً شديداً وصاح قائلا: «سترين كيف أخضعك . انك ستضطرين ان تحبيني. انظري هذه الساعة التي في يدى . فكما أحطمها أمامك هكذا أحطم مملكة

Digitized by Birzeit University Library

بولندا[١] وأسحقها اذا رفضت ما أطلب منك!» . قال ذلك وضرب بالساعة التي بيده عرض الحائط حتى تحطمت الى قطع صغيرة. فاغمى على مدام فالسكا وسقطت عند قدميه . ولما افاقت رأته واقفاً بقربها يمسح الدموع عن عينيها بكل رقة واهتمام

ومن الطف ما يروى عن استبداد هذا الرجل حتى في الامور الغرامية أنه عندما كان لايزال من عامة الناس يطوف بشوارع مرسيليا تعرف هو وأخوه بعائلة فرنسوا كلاري أحد تجار الحرير في مدينة مرسيليا . وكان لهذا التاجر ابنتان الكبرى تسمى جوليا والصغرى ديزيره . فاختار في أول الامر جوليا واختار أخوه الصغرى وخطباهما . وبعد ايام شعر نابوليون انه مغبون بهذه الصفقة فاراد أن يبادل أخاه خطيبته . واتفق ان اجتمع الاربعة ذات يوم فقال نابوليون لاخيه : «انك يا جوزيف متقلب في صفاتك ومثلك خطيبتك ديزيره أما انا وخطيبتي جوليا فعكسكما» ـ ثم اجتذب ديزيره وقال : «ولذلك أرى من الواجب ان تكون ديزيره زوجتي وتأخذ جوليا زوجة لك» . وهكذا تمت المبادلة ولم يجسر أحد ان ينطق بكلمة اعتراض. ولكن بعد ذلك بزمن شعر نابوليون انه على طريق المجد والعظمة وان أمامه مجالا واسعاً للشهرة فاقلع عن حبه لديزيره على رغم دموعها واحتجاجاتها ولم يلبث أن نسيها وتعلق بحب امرأة لعبت دوراً مهماً في تاريخ حياته الا وهي جوزيفين أو الفيكونتسه بوهارنيه . ويرجع تاريخ علاقته بها الى يوم من أيام شهر اكتوبر من سنة ١٧٩٥ وكان نابوليون اذ ذاك في

(١) كانت مدام فالسكا بولندية

بدء شهرته وقد أخذ طالع السعد يبتسم لراياته . فدخل عليه ولد صغير والتمس منه ان يأذن له في استبقاء سيف كان قد غنمه أبوه . فسر نابوليون من نجابة الولد وطلاقة لسانه وأجاب سؤله . وفي اليوم التالي جاءت امه وهي جوزيفين دي بوهارنيه [١] لتشكر نابوليون على مروءته . فلما رآها نابوليون أسره جمالها وأحبها منذ تلك الدقيقة

وقد ذكر المؤرخون انه لم يمر اليوم التالي حتى ذهب نابوليون لزيارة جوزيفين في بيتها الصغير بشارع شانتيرين . فدهشت من زيارته لها وهو يومئذ في ابان مجده واسمه يملأ جميع أنحاء فرنسا . وقد كان لهذه الزيارة تأثير عظيم في نابوليون فانه ظن نفسه في حلم اذ بهره جمال جوزيفين وأطار عنه صوابه فلم تكن صورتها تبرح من مخيلته ولم يعد يهنأ له بال الا في قربها . وقد ذكر المؤرخون ان ملامح جوزيفين كانت تنفذ السحر في قلب الناظر اليها فكان يرى أمامه مثالا مجسما للجمال من عينين ذابلتين ووجنتين شفافتين ومحيا صبوح وصوت أعذب من وقع القيثار

وشعرت جوزيفين اذ ذاك بوقوع نابوليون في غرامها ورأت نجم سعده آخذاً في الصعود . وكان اسرافها قد ذهب بكل ما تركه لها زوجها وأوقعها تحت عبء ثقيل من الديون لذلك لم تر بداً من التودد الى نابوليون والتظاهر بمحبته . وكانت نتيجة ذلك انه في أحد أيام شهر مارس من سنة ١٧٩٦ اقترن الجنرال نابوليون بونابرت

(١) هي زوجة الفيكونت الكسندر بوهارنيه من قواد فرنسا المشهورين حكم عليه في ايام الثورة الفرنسية بالموت ونفذ فيه الحكم في سنة ١٧٩٤

Digitized by Birzeit University Library

بجوزيفين دي بوهارنيه وعمرها يزيد سبع سنوات عن عمره ولكن مسجل عقد الزواج جعل عمرها تسعاً وعشرين سنة وعمر نابوليون ستاً وعشرين

وبعد أن قضى معها يومين في غبطة وهناء ودعها وسار لينضم الى جيشه بايطاليا . وكان كلما وصل الى محطة بعث اليها برسول ينبئها عن أحواله وما يعانيه من ألم الفراق ومما قاله لها في رسالته الاولى : « كلما وضعت يدي على قلبي شعرت بوجودك فيه واغتبطت غبطة لا توصف . فأنا لا أرى في هذه الحياة ألماً سوى ألم هذا الفراق »

وكانت صورتها لا تفارقه ليل نهار فاذا وصل الى محطة وضعها أمامه واذا سافر وضعها في جيبه . قيل انه إذ كان في نيس سقطت من يده مرآة وانكسرت فتشاءم من ذلك كثيراً وكاد يتملك منه اليأس فجلس وكتب رسالة الى جوزيفين يقول لها فيها : « ليت لك أجنحة فكنت تطيرين الى حضني »

على ان جوزيفين كانت في سرور يشغلها عن الذهاب اليه فان المقام الذي نالته في العاصمة كان مما تحسدها عليه أكبر ذوات التيجان اذ كانت باريز كلها تنظر اليها نظرة الاعجاب وتجلس عند موطئي قدميها لتتمتع بمحادثتها ومشاهدتها

وانقضت بضعة أسابيع نال فيها نابوليون انتصارات عديدة وضم الى تاريخه صفحات مجد جديدة . ولكن ذلك كله لم يكن لينسيه جوزيفين لحظة واحدة فكان يكتب اليها كل يوم رسائل يبثها من لواعج الشوق ما لم يكتب حبيب الى محبوبه. وأخيراً بدأ الشوق

يبرح به فكتب اليها يستقدمها اليه . ولكنها لم تكن لتبدل معيشتها في باريز بالمعيشة تحت ظلال السيوف . وكرر نابوليون الكتابة في ذلك فكانت تتحجل الاعذار الباطلة الى أن ضاق صبره فكتب اليها بلهجة شديدة يأمرها باللحاق به فأجابته بعذر جديد وهي انها حامل لا تستطيع تجشم مشاق السفر . فلما بلغ ذلك مسامع نابوليون كاد يطير من شدة الفرح فكتب يعتذر اليها قائلا : « اصفحي لي أيتها الحبيبة فقد تسرعت تسرعاً لا أعلم كيف أكفر عنه . لقد اتهمتك باطلا بعدم رغبتك في مفارقة باريز مع انك كنت مريضة . ان الحب قد يذهب بعقل المرء فلا يحاسب نفسه على هفواته . . . ليتني معك ولو يوماً واحداً »

وكتب نابوليون الى أخيه جوزيف يقول :

« ان مرض جوزيفين يكاد يطير بلبي . ليتني أراها فأضمها الى ذراعي . ان حبي لها بالغ حد الجنون فأنا لا أستطيع أن أعيش بدونها . فاذا ماتت لا قدر الله لم يبق لي في الحياة ما يرغبني فيها »

وبعد أيام بلغه ان جوزيفين لم تكن مريضة بالحقيقة فقد كانت تقيم الولائم والحفلات حسب العادة . ولا تسل إذ ذاك عما ناله من الغم المفرط . ورابته في تلك الدقيقة أقوال جوزيفين كلها فكتب اليها يأمرها بالذهاب اليه حالا . وإذ ذاك لم تستطع أن تخالف أوامره . فودعت باريز بين دموع الحزن والاسف . ولما وصلت الى ميلان استقبلها نابوليون بكل فرح وترحاب ولكنه ما عتم أن تركها ولحق بجيشه الذي كان قد أحدق به الخطر ثم كتب يستقدمها

Digitized by Birzeit University Library

اليه قائلا: «ان دموعك يوم الفراق كادت تقضي علي باليأس وتطير مني صوابي. فتعالي الي الى هنا لكي نقول قبل أن نموت اننا قضينا معاً أيام غبطة وهناء»

وأردف هذه الرسالة بعدة رسائل أخرى بهذا المعنى حتى اضطرت أخيراً ان تجيبه الى ملتمسه وتنضم اليه . قال ماسون المؤرخ ان نابوليون كان يقف عند قدميها كما يقف في حضرة معبوده

وكان بين قواد نابوليون ضابط صغير يسمى شارل وهو على جانب عظيم من جمال الصورة . قيل انه كان اجمل فتى فى جيش نابوليون. وقد وقع له على رغم حداثة سنه أمور غرامية لم تقع لغيره من الشبان . فلما أبصرته جوزيفين تملك حبه من قلبها ولم تعد تود مفارقة جيش نابوليون . وأحس شارل بحبها له فأخذ يتودد اليها ويقضي معظم أوقات فراغه بقربها

ولكن الامور لم تدم كثيراً على هذا المنوال فان نابوليون ما عتم ان ادرك ما بين جوزيفين وشارل وللحال أرسله الى باريز وأمره بالبقاء هنالك ريثما يصدر أوامره اليه . وعلمت جوزيفين السبب فخافت من غضب زوجها وكتبت الى عمتها تقول لها: لقد مللت الحياة حتى صرت اتمنى الموت»

ولما فرغ نابوليون من الحرب في ايطاليا عاد هو وجوزيفين الى باريز فكانت فرنسا كلها تمجدها وتلهج بذكرها . ولكن نابوليون ما عتم ان ودع جوزيفين ثانية وتوجه الى مصر . ووعدته جوزيفين ان تلحق به حالما تنتهي الحرب ولكنه لم يكد يصل الى

مالطة حتى عادت الى ولائمها وافراحها السابقة فكانت كل باريز تتغامز عليها. ولم تلبث الاخبار ان بلغت مسامع نابوليون فاخذ يرغي ويزبد ولكنه كظم غيظه . ويظن بعض المؤرخين انه أخذ يفكر في امر الطلاق منذ ذلك اليوم

وبعد ايام عاد نابوليون الى فرنسا بغتة . فسقط في يد جوزيفين وعزمت على مقابلته قبل ان يصل الى باريز لانها أرادت ان تلطف غضبه لا سيما وان الديون كانت قد تراكمت عليها . ولكن نابوليون قدم الى باريز بغير الطريق التي خرجت لملاقاته فيها فأسرعت وعادت الى باريز

قال المؤرخ ماسون : «وبقيت جوزيفين تقرع باب القصر طالبة الدخول ونابوليون يصم أذنيه عن صوتها ، وقضت مدة راكعة على ركبتيها وهي تبكي بصوت عال . . . ثم مر يوم كامل ولم يفتح الباب . وأخيراً تولاها الضنى وتعبت جداً وعزمت أن ترجع أدراجها واذا بوصيفتها قد أحضرت اليها ولديها أوجين وهورتانس فركعا هما أيضاً مع أمهما واستغفرا لها . فلم يعد في وسع نابوليون أن يصم أذنيه عن بكاء الولدين ففتح الباب وأمسك بجوزيفين فأنهضها وكفكف دموعها وصفح عنها»

وكان صفحه عنها تاماً فنسي أعمالها وسدد جميع ديونها ـ وكانت قد بلغت مليونين من الفرنكات ـ إلا أن زهرة جمالها كانت قد بدأت بالذبول . وكان نابوليون قد بلغ ذروة مجده فتوج أمبراطوراً على فرنسا وتوجت جوزيفين أمبراطورة معه . وكان لها مجالس فخمة في صروح التويلري وسان كلود وماليزون وقد صرفت في الصرح

Digitized by Birzeit University Library

الاخير أسعد أيام حياتها . فكانت معيشتها هنالك في مجالى الابهة والعظمة مما كانت تحسدها عليها أعظم لابسات التيجان. ولكن ذلك العز لم تطل أيامه فان نابوليون أخذ يطمع في مصاهرة الملوك فطلقها وتزوج الاميرة ماري لويز على ما هو مشهور في التاريخ ونحن نضرب صفحاً عما ألم بجوزيفين من الحزن واليأس بعد أن هجرها نابوليون ولكن معظم المؤرخين يلقون عليها اللوم في ذلك

أما ماري لويز فالمشهور عنها انها لم تكن تحب نابوليون مع انه كان مخلصاً لها . ولما كان على سرير الموت في جزيرة القديسة هيلانة طلب من طبيبه أن يضع قلبه في زجاجة من نبيذ ويرسله اليها ويقول لها انه أحبها من كل قلبه وان حبه لها لم يبطل قط . قيل ولما جاءها الطبيب وجدها تغازل موظفاً أعور يدعى نيبرج وتقول له : « انني لم أحس بحب من نحو نابوليون وان كنت لا أستطيع أن أنسى انه والد ولدى »

بقي أن نقول انه وقع لنابوليون حوادث غرامية كثيرة

وأشهر النساء اللواتي وقع في حبهن أو اتخذهن محظيات سواء في أيام حداثته أو في إبان مجده المدموازيل لوبرى دي سان جرمان وكان قد عرفها في فالنس بعد أن نسي كارولين كولوميه

والمدام تورو عرفها يوم كان ضابطاً بسيطاً ثم قصدته في أيام فقرها ومحنتها وهو في ذروة مجده فخصص لها معاشاً سنوياً قدره ستة آلاف فرنك

والمدام تاليانى وكانت من أشهر نساء عصرها في الجمال

والمدام بولين فوريس وكانت زوجة أحد الضباط الذين رافقوا

نابوليون الى مصر وقد عرفها في القاهرة ثم ارجع زوجها الى باريس وأبقاها في مصر

والمدموازيل جورج الممثلة الشهيرة بجمالها ، والمدام جراسيني الممثلة الايطالية وكان الدوق ولنتون من عشاقها ، والمدام جزانى وهي أيضاً إيطالية ، والمدام مارس من ممثلات الكوميدي فرانسز ، وغير هؤلاء مما لا يسعنا ذكرهن

غرام نابوليون في مصر

وأين كانت تقيم محظيته في القاهرة

مهارة الجواسيس الانكليز في ذلك الوقت

في ٩ مايو سنة ١٧٩٨ غادر نابوليون بونابرت ميناء طولون قاصداً مصر . وكان يحاول اجتناب عدوين كبيرين أحدهما نلسون قائد الاسطول الانكليزي والآخر جون بارنت أحد دهاة الجواسيس الانكليز

ولم يأذن نابوليون الا لنفر قليل من النساء ان يتبعنه وفي مقدمتهن مدام فرديه بيانكا التي جاء بها من ايطاليا . وبضع نساء أخر معظمهن زوجات القواد الذين رافقوا الحملة

وكان في تلك الحملة ضابط يدعى الليوتنان فوريس من فرقة الفرسان الثانية والعشرين وقد تزوج حديثاً فتاة حسناء لم يرد ان يتركها في فرنسا فاتفق معها على ان تلبس بزة جندي وتندس بين رجال الحملة

Digitized by Birzeit University Library

وقد اورد هذه الحادثة عدة مؤرخين في مقدمتهم توركان وبوريان ودوقة دابرانتي ودوروك والجنرال دوبوي

وخلاصة ما رووه انه في احد ايام اغسطس اقام نابوليون حفلة في ضواحي القاهرة حضرها جميع أركان حربه والنساء اللواتي كن قد جئن مع الحملة

وبينما هم في طرب وسرور رأى نابوليون قافلة من جنوده راكبين الحمير وهم يضحكون ويغنون . ولحظ بينهم شخصاً يمتاز عنهم بصوته الرخيم وابتسامته العذبة فلفت نظر الجنرال برتيه الى ذلك وأمره أن يبحث عن ذلك الشخص . فلم ينقض ذلك اليوم حتى جاءه الجنرال برتيه وقال له ان ذلك الشخص هو امرأة وهي زوجة الليوتنان فوريس من ضباط فرقة الفرسان الثانية والعشرين وقد تبعت زوجها متنكرة

وفي اليوم التالي تلقى الجنرال دبوي أمراً باقامة وليمة لكبار القواد والضباط ونسائهم وأوعز اليه ان يدعو مدام فوريس أيضاً

وقد كان كذلك. فدعيت مدام فوريس بدون زوجها فاراد هذا في أول الامر أن يمنعها من الحضور ولكنه خشي غضب الجنرال دبوي ولا سيما ان الوليمة كانت بأمر بونابرت

وبعد أن تشاور هو وزوجته ملياً سمح لها بالذهاب

وكانت المأدبة شائقة . وبينما القوم في بسط وانشراح فتح الباب ودخل بونابرت فوقف الجميع إجلالا واحتراماً ثم مر بين القوم وهو يبتسم لهذا ويحيي ذاك الى أن وصل الى حيث الجنرال دبوي

والمدام فوريس وحولها رهط من الضباط والقواد فتقدم مسلماً وحيا الجنرال دبوي فشكره هذا على تنزله لتشريف المأدبة ودعاه لتناول فنجان قهوة فلبى بونابرت الدعوة وجلس بين قائدين مواجهاً مدام فوريس وأخذ يحدق بها نظره

ولحظت مدام فوريس النظرات الحادة التي كان يرشقها بها وعلمت انها قد وقعت منه موقعاً كبيراً . فساورتها حمرة الخجل إذ كانت لا تزال في أوائل معيشتها الزوجية . إلا ان نابوليون لم يخاطبها بكلمة بل شرب قهوته مسرعاً وانصرف قبل أن يجلس المدعوون لتناول العشاء

ولما جاء دور العشاء تصدرت مدام فوريس الخوان جالسة بين الجنرال دبوي والجنرال جونو . وبينما الاخير منهما يتناول القهوة (بعد الفراغ من العشاء) سقط الفنجان من يده وانسكبت القهوة على ثوب مدام فوريس. وكان سقوط الفنجان برشاقة تامة لم يلحظها أحد . وسرعان ما أقبل القوم يحاولون تنظيف ثوب السيدة بواسطة الماء

وما كان أشد اعتذار الجنرال جونو وتظاهره بالاسف . وازدادت البقعة امتداداً في الثوب بسبب غسلها بالماء فاقتاد الجنرال جونو مدام فوريس الى علية في المنزل لكي تنشف ثوبها ! . . .

وكان بونابرت ينتظرها هناك . . . ولما أوصلها الى العلية أوصد عليها الباب ولم تخرج من هناك إلا عند نصف الليل !

* * *

وبعد هذه المأدبة بيومين أو ثلاثة صدر أمر للضابط فوريس

Digitized by Birzeit University Library

أن يذهب لمقابلة الجنرال برتيه . فذهب فاستقبله الجنرال ببشاشة وقال له :

ـ ان حظك عظيم يا عزيزي فوريس لانك ستعود الى فرنسا! فان القائد العام (أي بونابرت) يريد ارسالك الى باريس في مهمة سرية فيجب أن تستعد للسفر بعد ساعة وهاك الاوامر الصادرة لقائد ميناء الاسكندرية لتسهيل سفرك

فسقط في يد فوريس ولم يعلم بماذا يجيب ولكنه شكر الجنرال لحسن ظنه به وقال له : ـ اذا كان لابد من سفري بعد ساعة فيجب ان اذهب واخبر زوجتي لتستعد حالا للسفر معي

فقال برتيه :ـ زوجتك ! او تستطيع ان تأخذها معك في مهمة سرية يجب تأديتها باقصى ما يمكن من السرعة ولا سيما انك تعلم انك معرض لخطر الاسر لان بوارج الانكليز مالئة البحر المتوسط ؟

فلم يسع فوريس الا الخضوع . وفي الساعة الواحدة من ظهر ذلك اليوم (١٨ ديسمبر سنة ١٧٩٨) ركب مركبة خصوصية قاصداً الاسكندرية ومن هناك ركب سفينة فرنسوية تدعى «شاسور» وهي بقيادة قبطان يسمى لورنس

ومنذ ذلك اليوم أصبحت مدام فوريس تحت مطلق تصرف بونابرت. فاستأجر لها منزلا مجاوراً لقصر ألفي بك حيث كان يقيم هو وأركان حربه وكان يقضي أكثر أوقاته عندها أو يخرج معها للتنزه في مركبة . وعلم الجيش كله بحكايتهما فكانوا يسمون مدام فوريس « ملكة شرقنا »

* * *

هذا ما كان من أمرها . أما زوجها فما كاد يبعد عن الاسكندرية حتى رأى السفينة « شاسور » تمخر متعرجة فى خط غير مستقيم . فسأل القبطان عن سبب ذلك فقال له انه يحاول اجتناب البوارج الانكليزية . وكان فوريس مشتاقا ان يصل الى باريس لينجز مهمته ولكن قبطان السفينة كان يسير متعرجا كانه يبحث عن البوارج الانكليزية ليقع في أسرها عمداً

وفي الواقع أنه لم تمر بضعة أيام حتى التقت البارجة « ليون » الانكليزية بالسفينة « شاسور » فاسرتها ونقلت رجالها اليها

ولا تسل عما خامر فوريس اذ ذاك من الحزن والاسف فكان يلوم قبطان السفينة ويلقي عليه تبعة الوقوع في أسر الانكليز

وبينما هو كذلك اقبل عليه المسترجون بارنت ـ أدهى جواسيس الانكليز يومئذ ومن أقدر الذين سعوا لنكاية نابوليون ـ فاخذ يحادثه ويحاول أن يزيل كربه

وكان أشد حزن فوريس لانه اضطر ان يسلم الاوراق السرية التي كان ذاهباً بها الى باريس . الا أن بارنت أعادها اليه بدون أن يفتحها وقال له : ـ خذ هذه الاوراق فاننا لم نفتحها ولا نريد أن نفتحها . وقد صدرت الاوامر بارجاعك الى مصر واطلاق سراحك هناك

فلم يكد فوريس يصدق اذنيه . وأدرك بارنت سبب دهشته فقال له :

ـ نعم انك ستعود الى مصر فترى زوجتك بين ذراعي بونابرت!

فلم يكد يسمع ذلك حتى كاد الشرر يتطاير من عينيه . ولكن

Digitized by Birzeit University Library

بارنت اخذ يتلو عليه ما يأتي ويرمقه من آن الى آن بالنظرات . قال :

« لقي الجنرال بونابرت مدام فوريس أول مرة على الطريق بين القاهرة ورشيد . وللحال أمر الجنرال برتيه رئيس أركان حربه أن يستقصي اخبار السيدة ليعلم من هي. وفي ذلك اليوم نفسه اعلمه برتيه انها مدام فوريس زوجة الليوتنان فوريس من ضباط فرقة الفرسان الثانية والعشرين . فأمر بونابرت الجنرال دبوي ان يقيم في الغد مأدبة يدعو اليها بعض النساء الفرنسيات وفي مقدمتهن مدام فوريس بدون زوجها . وفي صباح الغد ذهب الجنرال جونو فقابل مدام فوريس على غير علم من زوجها وألح عليها بحضور المأدبة بدون زوجها لان بونابرت يريد مقابلتها . فاطاعت مدام فوريس ووعدت بالحضور إلا اذا منعها زوجها بالقوة

« وفي المساء حضرت وجلست الى المائدة بين الجنرال جونو والجنرال دبوي وكانت موضوع سمر الكل . وفي الساعة التاسعة والربع أي قبيل الفراغ من العشاء دخل نابوليون مع اثنين من قواده وجلس تجاه مدام فوريس تماما ولم يحول نظره عنها . وفي الساعة العاشرة تظاهر بالانصراف ولكنه صعد في الحقيقة الى علية في المنزل حيث لحقت به مدام فوريس بعد ذلك ببضع دقائق وبقيت معه الى منتصف الليل

«وظل نابوليون يجتمع بها يومياً من سبتمبر الى أواخر نوفمبر . وأخيراً اتفق معها على ابعاد زوجها . ورأى نابوليون ان أحسن طريق لذلك هو ان يعيده الى فرنسا متظاهراً انه يريد ان يرسله

بمهمة سرية ولكنه كان في الواقع يعلم انه لابد من وقوع سفينته في أسر الانكليز وبذلك يتخلص منه ويخلو له الجو مع مدام فوريس»

* * *

ولما فرغ بارنت من تلاوة هذا التقرير التفت الى فوريس وقال له : « هذا ما اتصل بنا من وكيلنا بمصر . أما الاوراق التي تحملها والتي تزعم انها سرية فان عندنا منها نسخة فلا شأن لنا بها . خذها وأعدها الى بونابرت كما هي . وستعود بك البارجة « ليون » الى مصر . ومتى وصلت الى القاهرة فان احد رجالنا سيستقبلك ويوصلك الى منزل بشارع الفي بك حيث تجد زوجتك بين ذراعي عشيقها

وكان كذلك . فان فوريس عاد الى القاهرة وسار تواً الى المنزل الذي قيل له عنه . فوجد زوجته وحيدة فطلب منها ان تطلعه على الحقيقة فاعترفت بكل شيء فانهال عليها بالضرب والركل والرفس حتى كاد يقتلها . وفي اليوم التالي طلب طلاقها فأجيب طلبه

وكان بارنت يرجو من اعادة فوريس الى القاهرة ان ينتقم هذا لشرفه ويقتل بونابرت . ولكن فوريس لم يفعل

مدام دي ستايل ونابوليون

امرأة عظيمة تحارب رجلا عظيما

في شهر يوليو من سنة ١٩١٧ وقع التذكار المئوي لوفاة مدام دي ستايل . فاعادت هذه الذكرى في الذهن تاريخ الحوادث الجمة

Digitized by Birzeit University Library

التي شغلت حياة تلك الاديبة النابغة . وأول ما يجدر ذكره من ذلك نزاعها الشهير مع نابوليون

يرجع هذا النزاع الى اختلاف فطري في مزاج الشخصين فقد كانت مدام دي ستايل شديدة التمسك بالحرية والاستقلال بل كانت تمثل مبادىء الثورة الفرنسية ولذا فلم يكن لها بد من مصادمة ذلك الجبار الصلب المزاج الحديدي الارادة

شاهدت مدام دي ستايل بونابرت في شهر ديسمبر سنة ١٧٩٧ للمرة الاولى في صالون تاليران اذ كان ذلك السياسي العظيم قد دعا نفراً من اصدقائه ليقدمهم الى بطل فرنسا العائد منصوراً من ساحة ايطاليا ، ولم يكن اذ ذاك يجاوز الثامنة والعشرين من عمره

ذهبت مدام دي ستايل الى ذلك الاجتماع وهي تكاد تحترق شوقاً الى مشاهدة بونابرت ذلك الذي لم يكن للناس حديث الا عن بسالته وعبقريته. ولكنه لم يكد يدخل قاعة الاستقبال حتى اضطربت وألجم لسانها

الا انها لم تلبث ان استعادت رباطة جأشها واخذت تجتهد في الاقتراب منه . ولكن بونابرت كان يجتنب الاشتباك في تلك المبارزة الجديدة عليه ، ولا سيما انه لم يكن يحب النساء الكاتبات . ثم سعت فى دعوته الى حفلة رقص فرفض

ولكن ذلك لم يكن ليثبط عزمها فقد كانت تذهب الى كل مكان تعلم انه موجود فيه ، حتى ان صدر بونابرت ضاق أخيراً عن احتمال هذا الاعتناء الزائد الذي كان في نظره أشبه شيء بالاضطهاد واجتمعت به ذات ليلة عند تاليران فرغبت في تبادل الحديث

معه (وقد كانت من أبرع النساء في فن المحادثة) فبادرته بالسؤال عن اعظم امرأة في نظره فاجابها بنشوفة :

— تلك التي تخلف اولادا اكثر من سواها

وبالرغم من ذلك فلم ترجع مدام دي ستايل عن عزمها على اجتذاب قلب ذلك الشاب المتوحش . . . . ففي ذات ليلة سألته هل يحب النساء فاجابها في الحال :

— اني احب امرأتي ياسيدتي

* * *

على ان اعجاب مدام دي ستايل ببونابرت اخذ يتضاءل ليس بسبب اعراضه عنها — فلم يكن ذلك ليثنيها عن ملاحقته — بل لان مقاصده الاستبدادية اخذت تتضح لها شيئاً فشيئاً ولا سيما بعد ان شرع يحث الجرائد المنتمية اليه على الاستهزاء بمدام دي ستايل وكتاباتها وآرائها ، حتى ان تاليرلما شعر انها قد اصبحت من المغضوب عليهم هجر صالونها ومجتمعاتها

الى هذا الحد لم تكن تكرهه بعد . فقد كانت لاتزال تعده — بالرغم من دلائل كثيرة — بطل الحرية ومنقذ الجمهورية والدستور . وعلى هذا الاعتقاد اخذت توجه اليه نصائح علنية مباشرة او بواسطة اصدقائها وفي مقدمتهم بنجمان كونستان الكاتب والخطيب الشهير . اما بونابرت فقد كان يعلم جيداً نفوذ مناظرته فشرع يرسل اليها رسله منذرا محذراً

ولكن مدام دي ستايل لم تعبأ بتهديده بل عادت الى نشر

Digitized by Birzeit University Library

آرائها مدافعة عن مبادىء الثورة منتقدة النظام الجديد . واخيراً اصدرت رواية « دلفين » الشهيرة . فلم يطق نابوليون صبراً على ذلك الكتاب الممتلىء غمزاً وتلميحاً وتهكماً عليه وعلى حكمه ولا سيما انه لاقى اقبالاً عظيماً لدى الجمهور ←

وقد كانت مدام دى ستايل إذ ذاك في قصر لها بسويسرا فرأى بونابرت أن يبلغها غضبه بواسطة أصدقائها في باريس . فانتهز فرصة وجود بعضهم في حفلة استقبال فقال بصوت عال :

— أرجو أن يكون أصدقاء مدام دي ستايل قد نصحوها بالعدول عن القدوم الى باريس وإلا فاني أضطر الى إرجاعها مخفورة الى الحدود

فلما بلغتها هذه الرسالة ولدت فيها رغبة شديدة في العودة الى باريس لتقتحم تهديد ذلك الذي بدأت تسميه « الطاغية » . على ان أصدقاءها أخذوا يسعون في اصلاح الحال واقناع بونابرت بالعدول عن صرامته . ولكنه مع ذلك لم ينثن عن عزمه وقد كان يجيب الجميع :

— لست أريدها أن تأتى . لتذهب ولتعش في انكلترا بين أعدائي

أما مدام دى ستايل التي تعودت معيشة باريس وصالوناتها وحفلاتها فانها لم تستطع البقاء في عزلتها بسويسرا . ففي ذات يوم قررت السفر الى فرنسا فذهبت اليها واتخذت لها مسكناً في مافلبير على مقربة من باريس ظناً منها ان بونابرت لا يصيبها بأذى ما دامت لا تتعرض له

ولكن نابوليون أصر على تنفيذ كلمته . ففي ذات مساء بينما كانت مدام دي ستايل تتناول العشاء مع بعض الاصدقاء دخل عليها رسول يحمل رسالة مختومة بالشمع الاحمر

قالت دوقة ابرنتس تصف هذا المشهد :

كانت مدام دي ستايل قابضة على عنقود صغير من العنب لما دخل الرسول غرفة الطعام . فخارت قواها وأدركت فى الحال ان ساعاتها على أرض فرنسا أصبحت معدودات . أما الرسول فلم يذكر اسمه وكان ضابطاً مهذباً اختير خاصة للقيام بهذه المهمة حتى لا يحدث مالا تحمد عقباه . وقد كان كثير المجاملة لها وساعدها بكل لطف في تحضير لوازم السفر ثم جلس معها في العربة وكان من شدة لطفه لها أن أظهر لها اعجابه بمؤلفاتها وكتبها . فأجابته والدموع تترقرق في عينيها :

— وا أسفاه يا سيدي . انظر الى أين يؤدي بالمرأة ذكاؤها وأدبها

* * *

من تلك الساعة بدأت الحرب عواناً بين مدام دي ستايل ونابوليون حتى أصبح مقرها في سويسرا « مجتمعاً » للناقمين على الامبراطور وحكمه . وقد قال نابوليون عنهم مرة « انهم يذهبون الي هناك ليجهزوا علي » . على انه كان يرسل الجواسيس الى مقر دي ستايل يستطلع أحوالها وأحوال المنضمين اليها . بل انه جعل كل مقاطعة جنيف تحت مراقبة البوليس لان نفوذ مناظرته فيها كان يتعاظم كل يوم فضلا عن تعاظم مقامها في أعين الدول الاوربية،

Digitized by Birzeit University Library

ولا سيما انه كان لها علاقات ودية مع كثيرين من الامراء والعظماء. حتى أصبح اعتزالها في قصرها بمنزلة احتجاج حي ناطق على استبداد نابوليون

ثم ان كتاباتها أخذت تزداد شدة فأصدرت رواية « كورين » وفيها مدحت الانكليز، فكتاب « المانيا » الذي عظمت فيه شأن الالمان ومجدتهم. ولكن نابوليون أصدر أوامره في الحال بمنع بيع هذا الكتاب واتخذ احتياطات شديدة ضد الكاتبة وجميع أصدقائها حتى ان صديقتها مدام ريكاميه أوقفت لانها زارتها. ومن ثم أخذ يهجرها أصحابها خوفاً على انفسهم

* * *

اذ ذاك لم ترمدام دي ستايل الا طريقاً واحداً للخلاص: الفرار. ولكن الى أين ومعظم الاقطار الاوربية خاضعة وقتئذ (سنة ١٨١٢) لنفوذ نابوليون؟ الملجأ الامين الوحيد أمامها كان روسيا. ففي ذات يوم غادرت قصرها من غير أن تشعر أحداً بقصدها بل انها في الظاهر ركبت عربتها كالعادة للتنزه مع ابنتها وابنها الاكبر وضابط كانت توده ويودها اسمه روكا. وظلت العربة سائرة حتى مدينة برن حيث بدلت الخيل وواصل أصحابنا رحلتهم الى أن بلغوا الحدود النمسوية

ولكنها في النمسا لم تستطع ابداء ما كان يكنه قلبها ضد نابوليون. فان فينا لم تكن كثيرة البعد عن باريس ولا سيما انه كان بين البلاط الفرنسي والبلاط النمسوي روابط متينة، ومما زاد المسئلة اشكالا ان صديقها الضابط روكا كان مطلوبا للخدمة في الجيش الفرنسي فافهمها

اولو الشأن انه لا ينبغي لها ان تصحبه في المجتمعات التي تتردد اليها. ولكنها لم تطق صبراً على ذلك فقصدت مدير البوليس ساخطة ناقمة فبادرها هذا بقوله:

— ولكن يامدام انك لاتودين ان نشهر الحرب على نابوليون من اجل المسيو روكا

فاجابته على الفور بحدة: — ولم لا؟

غير انها رأت من الحكمة ان تترك النمسا فغادرت فينا قاصدة روسيا فقوبلت بالترحاب العظيم في مدن روسيا حيث اقيمت لها الولائم والاحتفالات. ولكن ذلك الوسط كان شديد الاختلاف عما ألفته وتعودته منذ صغرها. ولم تتعز الا في بطرسبرج حيث وجدت لها رفاقا وأصدقاء من اعداء نابوليون وخصومه الذين اجتمعوا في تلك المدينة فراراً من استبداده. وفي مقدمة أصحابها كان القيصر اسكندر

* * *

الا انها لم تلبث ان خامرها شيء من الندم. فانها انما كانت تحارب نابوليون طلباً للحرية وحباً بالانسانية. ولكنها ادركت شيئاً فشيئاً ان أعداء نابوليون الذين عاشت بينهم كانوا في الوقت نفسه اعداء فرنسا وطنها العزيز وانها بحملهم على معاداة الامبراطور ومحاربته انما كانت تسعى لاضعاف فرنسا واذلالها. حتى انه في سنة ١٨١٤ لما دخل الاعداء باريس (وكانت قد وفدت الى لندن) جاءها بعض اصدقائها من الاجانب لتهنئتها على انكسار نابوليون. فقالت لهم:

Digitized by Birzeit University Library

— علام تهنئوني ؟ ألا اني في اشد حالات اليأس ؟

وهكذا بالرغم من انكسار عدوها اللدود وتمجيد الروس والانكليز وسائر اعداء نابوليون لها ما برحت مدام دي ستايل تزداد حزناً وكآبة

بل الاغرب من ذلك انها عادت فرأفت بنابوليون بعد ذله وندمت على مقاومتها له . ولا سيما بعد ما وجدت ان سقوطه لم يعد الحرية الى فرنسا بل أعاد اليها ظلماً أشد من ظلمه

نابوليون والصحافة

عنايته بها وتعويله عليها

قال أحدهم انه لو لم يكن نابوليون قائداً عظيما لكان كاتباً بارعاً . وقد يكون في هذا القول شيء من المغالاة ولكن فيه أيضاً جانباً عظيما من الحقيقة . فان لمنشورات نابوليون مقاما خاصاً في الآداب الفرنسية . ولا غرابة في ذلك فان الرجل العظيم — مهما يكن اتجاه عظمته — يحوي العامل الرئيسي الذي يكون الكاتب الا وهو «الفكرة» أو الروح

وقد كان نابوليون في مقدمة الذين أدركوا مقام الصحافة ونفوذها فاستخدمها لاغراضه في ادوار حياته المختلفة . ولكنه لم يتردد — حين خاف وطأتها — عن مراقبتها أشد المراقبة والتضييق عليها بجميع الوسائل التي كانت في يده

أطلقت حرية النشر في زمن الثورة الفرنسية فكان نابوليون

من الذين استفادوا من ذلك . وأول عهده في الادب انه في سنة ١٧٩٣ (وكان اذ ذاك في رتبة كابتن وعمره ٢٤ سنة) وزع بنفسه بين الضباط والجنود رسالة صغيرة كان قد طبعها وعنوانها « عشاء بوكير » Le Souper de Beaucaire سرد فيها مادار بينه وبين بعض الاهلين من الحديث عن المسائل الجارية والاحوال السياسية ووضع ذلك في قالب جذاب يغبطه به امهر الصحافيين اليوم. وكان غرضه صيانة الجمهورية الوليدة التي كان من أشد انصارها . وقد قررت الحكومة طبع تلك الرسالة على حسابها وتوزيعها بين جميع الطبقات مجاناً

وبعد ذلك بثلاث سنوات فكر في انشاء جريدة تنشر آراءه بين الجمهور . ولكنه قبل ان يخرج فكرته هذه الى حيز العمل شرع في نشر رسائل عمومية موجهة الى حكومة الديركتوار . فكان يطبعها بالالوف ويوزعها بين الجنود والضباط

وأخيراً أنشأ صحيفة سماها «بريد جيش ايتاليا» Le Courrier de l'Armée d'Italie وقد كان رئيس تحريرها المسمى جوليان يكتب بايعاز بونابرت وبناء على مذكراته وتعليماته . على أن ذلك لم يكف بونابرت فبعد بضعة اسابيع أنشأ صحيفة أخرى سماها « فرنسا كما يراها جيش ايتاليا » (الذي كان يقوده هو) La France vue de l'Armée d'Italie وقد استفاد بونابرت من هاتين الصحيفتين اعلاناً عظيما عن نفسه واستخدمهما في محاربة الصحافة الملكية والحزب الملكي

Digitized by Birzeit University Library

٤١٥
BIRZEIT COLLEGE

ولما كان في مصر انشأ جريدتين احداهما Le Courrier d'Egypte والاخرى La Décade Egyptienne

على أن بونابرت بعد أن استتب له الامر أصبح أشد المقاومين للصحافة خوفا من نفوذها وسلطانها . فاخذ في اقفال الصحيفة بعد الصحيفة حتى لم يبق في أوائل سنة ١٨٠٠ الا ١٣ صحيفة رضيت بالمراقبة الشديدة التي اقامها عليها

وكان يعنى عناية خاصة بالصحف الانكليزية والالمانية التي كانت تترجم له كل يوم. فان تهجماتها عليه كانت تؤثر في نفسه أشد تأثير ولكي يستطيع الرد عليها استولى على جريدة « المونيتور » Le Moniteur التي تأسست سنة ١٧٨٩ . وقد كانت هذه الجريدة قسمين قسماً رسمياً يدرج المنشورات والقرارات الحكومية وقسما سياسياً يحرر في مكتب نابوليون الخاص . وقد كان نابوليون يطلع بذاته على المسودات المطبوعة كل يوم

قال نابوليون عن هذه الصحيفة وهو في جزيرة القديسة هيلانة « ليس فيها حرف يجب على محوه بل انها ستظل دائماً مبرري كلما احتجت الى مبرر » وكانت هذه الجريدة تبحث خصوصاً في مسائل السياسة الخارجية

ولما رأى انه يتعذر عليه كتابة كل مايدور في خلده في جريدة « المونيتور » التي كان لها صفة رسمية أنشأ جريدة نصف اسبوعية سماها Le Bulletin des Armées ثم جريدة L'Argus التي ادعى انها لسان حال الجمهوريين الانكليز المقيمين في فرنسا وقصده من ذلك ايقاع الخلل في السياسة الداخلية الانكليزية

وزاد تشديد نابوليون على الصحافة مع استئثاره بالحكم فانه لم يشأ ان يسمع صوت في البلاد غير صوته. ومابرح بعد تتويجه امبراطوراً كما كان وهو قنصل اول يطلع على المقالات التي تنشر في «المونيتور» ويحرر فيها بل كثيراً ما كان يمليها او يعطي التعليمات بشأنها

وقد ألغى عدة جرائد اكليريكية واستبدلها بجريدة واحدة سماها Journal des Curés

واذ كان في ميلان عين مراقباً خاصاً «لجورنال الديبا» الشهير وفرض على اصحابه دفع اجرة ذلك المراقب

وبلغ نجاح نابوليون في الصحافة ان مترنيخ الوزير النمسوي قال : « ان محادثة الملك لرعيته مباشرة امر مستجد في التاريخ . وقد افتتح نابوليون هذه الطريقة واستفاد منها فوائد عظيمة » . وقد شاء ان يجاريه بانشاء صحيفة تكون لسان حال الدول المتحالفة ضد نابوليون ولكنه لم يفلح

جورج كادودال

ألد أعداء نابوليون

في صبيحة يوم ٢٧ فبراير سنة ١٨٠٤ ألفى أهالي باريس منشورات معلقة على جدران منازلهم تنذرهم بوجود رجل شرير في مدينتهم اسمه جوج كادودال . ولم يكن هذا الاسم غريباً لدى الاهالي فقد كان صاحبه معروفاً في ذلك الزمن ببأسه وبطشه واشتهر بصفة كونه رئيساً على عصابة لصوص ناوأت الحكومة وأرادت

Digitized by Birzeit University Library

الايقاع ببونابرت وهو اذ ذاك القنصل الاول (premier consul) أي صاحب السلطة العليا في شئون فرنسا

وقد سردت في المنشورات أوصاف كادودال كما يأتي :

«طوله ٥ أقدام و ٤ بوصات . عريض الكتفين . كبير الرأس . قصير الرقبة الخ . . » وحضت الحكومة الاهالى على إعلامها بما يقفون عليه من شأنه وهددت بالقتل كل من يتجرأ على إيوائه أو يعمل لتخليصه بطريقة من الطرق

أما جورج كادودال فقد كان من أخلص المتحيزين لاسرة البوربون وهي الاسرة المالكة قبل الثورة الفرنسية . ولذا ألف عصابة للايقاع بالجمهورية وإعادة الملك الى تلك الاسرة . وقد نقم كادودال على الذين استأثروا بالسلطة ولا سيما بونابرت حاكم فرنسا الحقيقي اذ ذاك فقام يريد إسقاطه . وما برح يسعى لذلك ورجال الشرطة عاجزون عن القبض عليه الى أن علموا بوجوده في باريس نفسها فأنذروا الاهالى بواسطة المنشورات المتقدم ذكرها

وقد جرب بونابرت قبل استفحال الامر بينه وبين كادودال أن يستميل اليه ذلك العدو الجسور لاعجابه باقدامه وجرأته . فدعاه ذات يوم الى جلسة خصوصية وجعل يؤمله بأرقى الوظائف ويعده بأعلى الرتب على أن يكف عن معاداته . فلم يكن من جورج إلا أن ازداد حقداً عليه ونفوراً منه فافترق الرجلان وكل يضمر للآخر شراً

وأخذ كادودال من ذلك الحين يدبر مكيدته بقصد القبض على بونابرت والاتيان به الى مكان على الساحل ينقل منه الى انكلترا

على سفينة معدة لذلك . ولم يزد أتباع كادودال المتآمرون معه على العشرين وأكثرهم من أهل مقاطعة بريطانيا الفرنسية وهم مشهورون باخلاصهم لملوك فرنسا السالفين . وقد كان الباريسيون يستقصون أخبار تلك العصابة ويتتبعونها الى أن بلغهم خبر وجودها في وسط مدينتهم فزادهم ذلك شوقاً الى معرفة ما يكون من أمرها

بقي الحال كذلك والحكومة متيقنة من وجود المتآمرين في وسط باريس ولكنها لم تستطع أن تقف لهم على أثر . على انها شددت في مراقبة طرق المدينة ومنافذها وفحص القادمين اليها والخارجين منها . وبلغ من تشديدها في المراقبة انها أصدرت الاوامر لرجالها بتوقيف كل جنازة تتعدى أسوار المدينة وتفتيش التابوت خوفاً من أن يكون أحد المتآمرين مختبئاً فيه

أما كادودال فقد سكن أولا منزلا في أحد أطراف المدينة ثم انتقل بعد مدة قصيرة الى منزل آخر في شارع كاريم برنان فمكث فيه بضعة أيام ثم استأجر غرفة له ولاثنين من رفاقه يدعيان جوايو وبربان في منزل لبائعة فواكه تدعى مدام لموان كانت تسكن في شارع جبل سانت جنفياف . وكان ذلك في يوم ١٧ فبراير وقد تم الانتقال بحذر عظيم فلم يدر البوليس بشيء منه بل ان مدام لموان نفسها ظلت جاهلة أمر النازلين عندها وكثيراً ما تكلمت عن كادودال أمامهم وطعنت فيه طعناً جارحاً وهو يتحمل ذلك خوف الفضيحة

وكان قد ساد الاعتقاد بين الاهلين بأن كادودال استطاع الخروج من المدينة بالرغم من المراقبة لان البحث عنه طال من دون

Digitized by Birzeit University Library

جدوى الى أن كان يوم ٨ مارس . ففي ذلك اليوم بصر ضابط من ضباط الشرطة المدعو بيتي بأحد المتآمرين واسمه لوريدان وكان يعرفه من قبل ـ رآه يتحدث مع سيدة في شارع سانت انتوان فلما فارقها تتبعه بيتي واذا به يقترب من رجل ترجح لديه انه جوايو (وكانت اوصافه مذكورة في المنشور) . وقد كان الامر كذلك في الواقع فان ذلك الرجل كان جوايو نفسه الساكن مع كادودال في بيت بائعة الفواكه وكان قد خرج من مخبئه باحثاً عن مأوى يلجأ اليه مع سيده يكون أضمن لسلامته من ذلك البيت . فهداه لوريدان الى منزل العطار كارون في شارع فورسانت جرمان . وكثيراً ما خبأ كارون هذا في منزله المتآمرين على رجال الثورة وقد كان في منزله مخابىء ومسالك سرية تعين على ذلك . فاتفق الرجلان على ان يبرح كادودال منزل مدام لموان في مساء اليوم التالى على عربة من العربات الخفيفة ذات الدولابين cabriolet ويتوجه بها الى منزل كارون

أما بيتي فقد لاحظ من حركاتهما أهمية ما جرى بينهما من الحديث . على انه ما زال يتتبع جوايو حتى فقد أثره في ساحة موبير فرجح ان كادودال قاطن في ذلك الحي فبث جواسيسه فى تلك الانحاء

وفي اليوم التالى بلغ بيتي بواسطة جواسيسه ان لوريدان قد استأجر العربة نمرة ٥٣ ليستخدمها طول ذلك اليوم فاسرع الى المحافظة وأقبل مع زميله دستافيني وعدد غفير من رجال البوليس السري الى ساحة موبير . وقد حسب انه لا بد للعربة من المرور

بذلك المكان اذا صح ظنه بوجود جورج في تلك النواحي . فيلبثون في انتظارها ويقبضون على من فيها. وقد صدرت الاوامر الى رجال الشرطة بتوقيف العربة اذا كان فيها اثنان أو اكثر وبتتبعها فقط اذا كان فيها راكب واحد

مضى النهار كله واقبل الليل ولم يحدث أمر ذو شأن. الى ان كانت الساعة السابعة مساء فابصر رجال الشرطة عربة مقبلة على الساحة ولم يجدوا فيها الا راكباً واحداً عرفوا من ملامحه انه لوريدان. فصعدت العربة شارع جبل سانت جنفياف وسارت بلصق جدران المنازل ورجال الشرطة يتتبعونها عن بعد بينما بيتي ودستافيني وكانيول لاحقون بها بكل تيقظ. وكانوا يتوقعون ان تقف أمام منزل من منازل ذلك الشارع حيث يأتي اليها كادودال ويركبها فلا يبقى الا القبض عليه . لكن لم يحدث شيء من ذلك اذ اتجهت العربة يميناً ودخلت في شارع ضيق ثم وقفت أمام منزل هناك . ولما كانت فوانيسها قوية النور استطاع ضباط الشرطة الثلاثة مراقبة لوريدان من دون ان يشعر بذلك فابصروه وقد ترجل ودخل البيت ثم خرج منه ثم عاد فدخل ثانية ومكث في داخله نحو ١٥ دقيقة ثم خرج وعاد بالعربة الى شارع جبل سانت جنفياف ووالى السير فيه الى ساحة سانت اتيان دي مون. كل ذلك وكانيول يتتبع العربة قريباً منها وبيتي ودستافيني يتبعانها على مسافة أبعد قليلا الى ان وصلت العربة الى زاوية شارع سيت فوا فخرج اذ ذاك من الظلمة أربعة رجال فصعد أحدهم الى العربة وامسك اللجام وسار مسرعاً

أما ضباط الشرطة فانهم تيقنوا ان الذي صعد الى العربة هو

Digitized by Birzeit University Library

جورج كادودال نفسه فاندفع كانيول يريد ملاحقته الا ان الرجال الثلاثة الذين كانوا في الظلمة انبروا له ليحولوا بينه وبين العربة لكن كانيول دفعهم وواصل جريه يتعقب العربة الى أن قرب منها وهي تحاول ان تتوارى في ممر الجاكوبان . أما ضابطا الشرطة بيتي ودستافيني فكانا يتعقبان العربة بأسرع ما استطاعا وهما يصيحان « امسكوه . امسكوه »

أما جورج كادودال فانه حالما صعد الى العربة علم بالخطر المحدق به فصاح بلوريدان أن أسرع . فقال هذا الى أين . قال لا أدري ولكن اسرع . ثم أخذ يراقب كانيول وكان هذا قد اقترب من العربة فتعلق بمؤخرتها وكادودال عالم بذلك ولكنه لم يستطع ان يمنعه عنه. فجعل يراقب بيتي ودستافيني وكانا قد جمعا بصياحهما رجال الشرطة المنبثين في تلك النواحي . فلما تيقن كادودال بأن رجال الشرطة قابضون عليه لا محالة ان هو بقي في العربة رأى ان يغادرها أملا بالفرار فوثب منها الا ان كانيول الذي كان معلقاً في مؤخرها لم يلبث ان وثب على الخيل فاوقفها . وكان بيتي ورجل آخر من الشرطة اسمه بوفيه قد أدركا العربة اذ ذاك

فدنا بوفيه من كادودال يريد القبض عليه لكن هذا رماه برصاصة صرعته في الحال. ثم أطلق رصاصة أخرى على كانيول ولكنها لم تصرعه بل ان كانيول تمكن من ضربه بهراوته على رأسه ضربة أفقدته رشده . ولولا ذلك لتمكن من الفرار . ولم تمض بضع دقائق حتى أدرك المكان رجال الشرطة فأحدقوا بكادودال وساقوه الى المحافظة حيث كلف دوبوا تفتيشه والقاء بعض الاسئلة عليه . ولم

يبد على كادودال أثناء ذلك أدنى علامة للجزع أو الخوف فانه كان يجيب على الاسئلة بغاية السكون بل مع الازدراء والتهكم . ومن أمثلة ذلك ان دوبوا جعل يوبخه لقتله بوفيه وهو رب عائلة . فأجابه كادودال بسكون : الاجدر بكم مرة أخرى ألا تنفذوا الا العازبين للقبض علي

ثم سأله دوبوا عن محل إقامته قبل القبض عليه فأجاب بتهكم : كنت نازلا في عربة . وهكذا كانت سائر أجوبته . فلم يستطع دوبوا أن يقف منه على أمر هام أو أن يفوز باستعلام ذي شأن . فأرسله الى السجن المعروف بسجن توردى تمبل حيث وجد رفاقاً له كان قد ألقى القبض عليهم

وقد حافظ المسجونون على السكون ورباطة الجأش وكانوا يجتمعون في النهار في ساحة السجن ينشدون الاناشيد الدينية غير مكترثين لما سيحل بهم

وكان قد تقرر أن تبتدىء محاكمة المتهمين يوم الاثنين ٢٧ مايو فنقلوهم في ذلك اليوم الى المحكمة . وكانت قاعة المحاكمة مع كبرها غاصة بالناس

فشرع القضاة يلقون الاسئلة على المتهمين الواحد بعد الآخر وهؤلاء لا يجيبون الا بعد أن يتفرسوا في وجه زعيمهم كأنهم يستمدون منه الجواب . وكان هم كادودال الوحيد أن يخفف عن أتباعه وينقذهم بقدر استطاعته موجهاً اليه كل التهم . ولما طلب اليه ان يدافع عن نفسه قال بكل رباطة جأش : اذا كان لحضرات القضاة

Digitized by Birzeit University Library

أن يضمنوا لي موتة أجمل من هذه دافعت عن نفسي والا فالسكوت اولى

وكان بين القضاة قاض اسمه توريو وهو من الذين وافقوا على قتل الملك لويس . وحدث أنه سأل أحد المتهمين عن ايقونة عليها صورة الملك وجدت معه عند القاء القبض عليه ثم افتقدت قال : ماذا فعلت بتلك الصورة ؟ . فصاح به كادودال : وانت ماذا فعلت بصاحبها ؟ (مشيراً الى مقتل الملك)

وكان الهدوء باديا على المتهمين جميعاً ولم ينكر أحد منهم بأن غرضهم كان اعادة عرش فرنسا الى من يستحقه من آل البوربون

ومن النوادر التي حدثت اثناء المحاكمة والتي تدل على عدم اكتراث المتهمين ان أحدهم استغرق في النوم بينما كان المحامي عنه مسترسلا في المرافعة . وقد ضحك الحضور لهذا الحادث الا المحامي فانه غضب لما رآه من ازدراء موكله

وفي يوم الاحد ١٠ يونيو صدر الحكم بالقتل على ١٢ من المتهمين وفي مقدمتهم كادودال . فتلقوه جميعاً بكل سكينة

ثم نقلوا الى السجن انتظاراً لتنفيذ الحكم فلما كانوا هناك قال جورج لرفاقه : لقد انتهينا الآن من واجبنا نحو ملك الارض وبقي علينا ان نقوم بواجبنا نحو ملك السماء . ثم شرع يصلي معهم . وكان دائماً يحضهم على تتميم واجباتهم الدينية

ومما يروى عن عناد كادودال أنهم أتوا اليه ذات يوم (بعد اصدار الحكم عليه) برقعة فيها طلب العفو واكدوا له بان نابوليون مستعد للعفو عنه اذا هو وقع تلك الرقعة فنظر كادودال اليها واذا

في أعلاها : « الى جلالة الامبراطور » (وكان نابوليون قد توج امبراطوراً) فرماها ورفض توقيعها قائلا لرفاقه لنصل أيها الرفاق ، ان ذلك الشرير يريد أن يذلنا قبل أن يقتلنا

وفي ٢٥ يونيو نفذ الحكم فيهم جميعاً بعد أن أتموا واجباتهم الدينية وكان جورج أول الصاعدين الى الغليوتين . صعد اليها وهو يصيح : ليحي الملك !

نابوليون في برلين

لما فرغ نابوليون في دسمبر سنة ١٨٠٥ من محاربة المحالفة الاوربية الثالثة التي عقدتها الدول ضد فرنسا ابرم مع النمسا زعيمة تلك المحالفة صلح برسبورج الذي نال فيه معظم مطالبه . وقد خيم السلام على أوربا أثر ذلك الصلح زمناً لم تطل مدته . فان بروسيا ، التي لم تلازم في تلك الحرب شروط الحياد التام كما أعلنته رسمياً ، ما برحت تحشد الجيوش وتتهيأ سراً للقتال خلف ستار التودد والمجاملة على ان ذلك التأهب لم يكن ليخفى على نابوليون فان التقارير السرية كانت ترد اليه مفعمة بما تضمره بروسيا من نحوه وما تنويه من مهاجمته حالما ترى في نفسها المقدرة على ذلك . وكانت لويزا ملكة بروسيا والوزراء وسائر أهل البلاط يتوقعون كسر شوكة نابوليون والتغلب على جيوشه كأن الامر محتم لا ريب في حصوله عند ما يلتقي الجمعان

وكانت الجيوش الفرنسية اذ ذاك لا تزال معسكرة في بعض

Digitized by Birzeit University Library

جهات المانيا فأرسلت بروسيا انذاراً الى نابوليون طلبت فيه الجلاء عن تلك البلاد وطلبت أموراً أخرى وعينت يوم ٨ اكتوبر كآخر موعد للرد

أما نابوليون فلما بلغه الانذار تبسم استخفافا ثم التفت الى المارشال برتييه وقال: «لقد ضرب لنا موعد شرف في يوم ٨ اكتوبر وليس من عادة الفرنسي ان يتخلف في مثل هـذه الاحوال . ويقال ان ملكة جميـلة ستكون بين صفوف البروسيين فلنحافظ اذاً على غاية التأدب» . وفي الواقع كانت ملكة بروسيا قد ارتدت ثياب امازون لتقود الفرقة المسماة باسمها

وكان نابوليون يتوقع هذا الانذار بين يوم وآخر فلم يتلقه على حين غرة بل كان قد تدبر للامر كجاري عادته في مثل هـذه الاحوال حتى انه ارسل الى ملوك بافاريا وساكس وورتنبرج وهم حلفاؤه يعلمهم ان يكونوا على استعداد لامداده عند أول اشارة . وكان هو اذ ذاك في باريس فتركها وقصد مدينة بمبرج في المانيا حيث كانت جيوشه واتخذها مقراً لاركان حربه . واجتمع لديه ٢٠٨٠٠٠ مقـاتل من الفرنسيين وحلفائهم . وكانت بروسيا قد حشدت ١٨٠٠٠٠ والغريب في ذلك ان نابوليـون لم يتوقع قط اقدام بروسيا على محاربته وحدها بدون حليف حتى انه كتب لتليران في هذا الشأن يقول: «ان فكرة اقدام بروسيا وحدها على محاربتي لما يستدعي الهزء وهو أمر بعيد الوقوع لايستحق أن ينظر فيه»

وصل نابوليون بمبرج يوم ٦ اكتوبر سنة ١٨٠٥ فاصدر منشوراً

الى الجيش يذكر سبب قدومه وأمر الحرب الجديدة التي نشبت قال:

أيها الجنود

كان قد صدر الامر بعودتكم الى فرنسا وكنتم قد جزتم عدة مراحل اليها

أفراح بهيجة كانت تنتظركم في فرنسا وقد اتخذت المعدات في العاصمة لاستقبالكم

ولـكن بينما نحن مسترسلون نتغنى بالسلام والطمأنينة كانت المكائد تكاد لنا تحت ستار الصداقة والتحالف

فلقد علا نداء الحرب في برلين. ومابرحنا منذ شهرين نتحرش المتحرشين بنا يتزايد في كل يوم

ان تلك الفئة التي قادت البروسيين منذ ١٤ سنة الى سهول شمبانيا لتستفيد من قلاقلنا الداخلية لاتزال هي ذاتها بتيهها وخيلائها صاحبة القول الفصل في مجالسهم

واذا لم يعد بمقصدهم اليوم احراق باريس وتدميرها من اساسها فانهم يطمحون الى رفع أعلامهم على عواصم احلافنـا ، الى سلب ساكس استقلالها باتفاق شأن لجعلها من مقاطعاتهم ، الى انتزاع أكاليل الغار من على جباههم

انهم يريدون أن نجلو عن المانيا لدى مشاهدة جيوشهم

ما أجنهم ! ألافليعلموا انه لا سهل الف مرة أن يدمروا العاصمة العظمى من ان يلطخوا شرف ابناء الشعب العظيم وحلفائه

ان مقاصدهم خابت في ذلك الحين : فلقد وجدوا في سهول شمبانيا الفشل والموت والعار . ولـكن عبر الايام تمحى . ومن الناس

Digitized by Birzeit University Library

من لاتزول من قلوبهم عاطفة البغض والحسد

أيها الجنود ، ليس بينكم من يود ان يعود الى فرنسا عن غير طريق الشرف

لن ندخلها الا تحت أقواس النصر

أجل ! لقد اقتحمنا الفصول والبحار والصحاري ، لقد كسرنا اوربا المتحدة علينا غير مرة ، لقد حملنا مجدنا من الشرق الى الغرب — افكان ذلك كله حتى نعود الى وطننا خائبين بعد ان نتخلى عن حلفائنا ، وحتى نسمع قائلا يقول « ان النسر الفرنسي فر هارباً لدى مشاهدة الجيوش البروسية ؟ »

ليخبر الجيش البروسي ثانية ما قد خبره منذ ١٤ سنة

ولكن ها انهم قد دنوا من مواقعنا الامامية ...

لنمش اذاً ما دام التسامح لم يجد لافاقهم من سكرتهم الغريبة

ليعلموا انه لئن سهل توسيع الاملاك وبسط النفوذ بمصادقة الشعب العظيم فان عدوانه (الذي لا يتأتى الا بهجركل تعقل وحكمة) لهو أشد واعظم من عواصف الاوقيانوس

عن معسكرنا الامبراطوري في بمبرج في ٦ اكتوبر سنة ١٨٠٦

نابوليون

وفي اليوم التالي بعث نابوليون رسالة الى مجلس الشيوخ ضمنها ماكان من أمر خداع بروسيا له وما حمله على الالتحاق بجيوشه وانه رغماً من كل ذلك سيبذل ما في وسعه لمنع نشوب الحرب وتوطيد دعائم السلام

ثم كتب في ١٣ اكتوبر الى فريدريك الثالث ملك بروسيا

يطلب اليه التسوية بالطرق السلمية ضناً بدماء الابرار من الرعايا . فعل ذلك وهو يواصل العمل بخططه الحربية لسوء نية بروسيا وضعف أمله فى مصالحتها . وقد أدت خططه الى انتصاره في « يانا » يوم ١٤ اكتوبر وتمزيقه جيوش بروسيا شر ممزق . وقد خسر البروسيون في هذه المعركة ١٥٠٠٠ أسير و ١٢٠٠٠ بين قتيل وجريح وهي خسارة جسيمة بالنظر الى ذلك الزمن

أما الجيش البروسي فانه ما زال يتقهقر بلا انتظام والجيوش الفرنسية تتبعه وتشاغله لتمنعه من جمع أطرافه واعادة نظامه حتى اذا رأى الامبراطور فريدريك استفحال الامر خشي سوء العاقبة فأرسل يطلب هدنة فلم يرض بها نابوليون وما زال يواصل سيره نحو برلين الى أن وصل الى بوتسدام [1] يوم ٢٤ اكتوبر حيث أصدر الى جيشه المنشور الآتي :

أيها الجنود

لقد حققتم أمنيتي وحزتم عن جدارة ثقة الشعب الفرنسي

فانكم تحملتم بشجاعة المشاق والمصاعب التى اعترضتكم ، بقدر ما أظهرتم في المعارك من الاقدام ورباطة الجأش

انكم المدافعون الجديرون عن شرف تاجى وعن مجد الشعب العظيم . فما زلتم على هذه الروح فليس من أحد يستطيع مقاومتكم

وقد تبارى الفرسان والمدفعية حتى أصبحت لا أدري أي سلاح أفضل . . .

انكم جميعاً لجنود صالحون . وهاك نتيجة عملنا

(١) مدينة صغيرة في جوار برلين كانت مقر آل هوهنزولرن

Digitized by Birzeit University Library

ان دولة من دول أوربا العسكرية الكبرى – تلك التي تجرأت على أن تعرض علينا شروطاً شائنة – قد تلاشت

ان غابات فرنكونيا والزال والالب ومضايقها التي لم يكن في استطاعة آبائنا أن يقطعوها في أقل من سبع سنوات قد قطعناها نحن في سبعة أيام اشتبكنا في أثنائها مع العدو في أربع مواقع ومعركة كبرى

ولقد سبقنا الى برلين وبوتسدام شهرة انتصاراتنا وقد غنمنا ٦٠٠٠٠ أسير و ٥٥ علماً بينها أعلام حرس ملك بروسيا و ٦٠٠ مدفع و ٣ حصون وأكثر من ٢٠ قائداً

على ان نصف عددكم تقريباً يأسفون لأنه لم يتح لهم بعد اطلاق رصاصة واحدة . ان كل مقاطعات المملكة البروسية حتى « الاودر » هي في قبضة يدنا

... ان جيوشاً جديدة قد تألفت في داخل الامبراطورية وهي تتقدم لتحل محلنا في حراسة فتوحاتنا

ولقد سخط شعبي بأجمعه اثر الشروط الشائنة التي عرضها علينا الوزراء البروسيون فان طرقنا ومدننا القريبة من الحدود ملأى بالمجندين الذين يحترقون شوقاً الى اقتفاء آثاركم . ولن نكون بعدئذ الاعيب صلح غدار

أيها الجنود ! لا استطيع ان اعبر لكم عن عواطفي من نحوكم بأفضل من قولي اني أحفظ لكم في قلبي تلك المودة التي تظهرونها لي كل يوم

عن معسكرنا الامبراطوري في بوتسدام في ٢٦ اكتوبر سنة ١٨٠٦
نابوليون

قضى نابوليون في بوتسدام ليلتين ونزل في قصر فريدريك الاكبر وأقام في حجرته . وعرض الحرس الامبراطوري ثم زار قبر فريدريك وأخذ سيفه وحزامه وغير ذلك من آثاره وجميع أعلام حرسه الخاص في حرب السبع سنوات وأرسلها الى باريس كغنائم حرب

وفي ٢٧ اكتوبر دخل نابوليون برلين بين قواده وأركان حربه وكان في طليعة الموكب ثمانون من الحرس الامبراطوري حاملين الاعلام التي غنمها الفرنسيون من الجيش البروسي . وقد خرج للقائه وفد من الاعيان والحكام تحت رئاسة البرنس دي هتزفلد حاكم المدينة فرحبوا به وقدموا له مفاتيحها

وصل نابوليون الى القصر الامبراطوري في الساعة الثالثة بعد الظهر فاخذ يهتم بتنظيم المدينة واستبقى البرنس دي هتزفلد حاكماً مدنياً عليها ثم استقبل في اليوم التالي سفراء بافاريا واسبانيا والبرتغال وتركيا الذين اتوا يهنئونه بفوزه

وفي اثناء اقامته في برلين أتى نابوليون عملا استحق عليه الاعجاب . ذلك ان البرنس دي هتزفلد الذي ابقاه حاكماً على المدينة كان يتفاوض سراً مع الملك البروسي وكان بينه وبين القواد البروسيين مفاوضات سرية . فتوفق المجلس الحربي ذات يوم الى ضبط رسالة بعث بها الى أحد القواد البروسيين يعلمه بحركات الفرنسيين . فبينما هو خارج مرة من عند الامبراطور اذا شرذمة

Digitized by Birzeit University Library

من الجند القت القبض عليه وساقته الى السجن . فلما علمت امرأته بذلك ظنت انها وشاية بعض القواد الفرنسيين فعقدت النية على تبرئة زوجها أمام نابوليون لتخليصه. فأتت اليه وهي تذرف الدمع والقت نفسها عند قدميه وأخذت تدافع عن زوجها بكل حرارة . فلما رأى نابوليون تأثرها رفعها عن الارض ثم فكر قليلا وقال : « لا شك يا سيدتي انك تعرفين جيداً خط زوجك. خذي هذه الرسالة واقرئيها واخبريني عمن كتبها »

فناولها الرسالة فعرفت خط زوجها فلم يسعها انكاره وعلمت انه لم يعد لها حجة لطلب العفو فهمت بالخروج فبادرها نابوليون وقال : «خذي الرسالة يا سيدتي والقيها في النار فتخلصي زوجك اذ لا يعود لدينا دليل على خيانته » فتناولتها وهي لا تكاد تصدق ما تسمع والقتها في النار

وهكذا خلصت زوجها من موت اكيد

محاولة اغتيال نابوليون

ومهارة رئيس جواسيسه

دخل نابوليون مدينة ابنسبرج (في بافاريا) يوم ٢٢ يوليو سنة ١٨٠٦ ملبياً دعوة مكسيمليان ملك بافاريا الذي كان قد استنجده لرد غارة النمسويين على بلاده . فدخلها راكباً جواده في مقدمة فرقة القائد دافو والى جانبه مكسيمليان المتقدم . وكان البافاريون اذ ذاك من حيث أميالهم السياسية منقسمين الى فريقين : فريق استصوب

سياسة الحكومة ورضي بمساعدة الفرنسيين وفريق انكر تلك السياسة وفضل النمسا على فرنسا

وحدث في اليوم السابق لقدوم نابوليون ان رجلين تشاجرا في بعض أحياء المدينة . وقد حملهما على ذلك جدال قام بينهما بشأن الحالة السياسية . وكان أحدهما وهو لويس ولف البالغ من العمر ٢٨ سنة متعصباً ضد الفرنسيين حاقداً على نابوليون ، فلم يطق صبراً على رفيقه الذي تنبأ بانه لا ينقضي اسبوعان حتى يفوز الفرنسيون ويسحق النمسويون

ومن قوله لرفيقه انه اذا توصل الفرنسيون الى سهول بافاريا فانما يكون ذلك لحفر قبورهم فيها . واشتد الجدال بينهما حتى افضى بهما الى الملاكمة والمصارعة

أما حقد لويس ولف على نابوليون فكان أمره مشهوراً بين اقرانه ومعارفه وله فيه عذر مقبول . فان اباه واخوته ذهبوا ضحية لمطامع ذلك الجبار وسقطوا في ميادين الحروب التي أثارها ، ووالدته اتهمت أثناء ذلك بالتجسس فاعتقلت وذاقت مر العذاب ثم افرج عنها ولكنها لم تلبث بضعة أيام حتى توفيت على أثر ما نالها من التعب والاعياء

فهذه الاسباب كلها أوغرت صدر ولف حقداً على نابوليون ، وحق له أن يحقد ... فأقسم ان ينتقم لاولئك الابرياء ووطد عزمه على ذلك . ثم قال في نفسه : « اكمن له أثناء مروره فأصوب اليه نار بندقيتي واصرعه وأشفي منه غليلي ولست ابالي بعد ذلك

Digitized by Birzeit University Library

قضي علي أم نكل بي اذا كون قد انتقمت لنفسي ولاهلي من شر عدو »

فمضى الى بيته وأخذ بندقيته فحشاها بارود اً ثم فكر ملياً وقال : « اذهب الى بيت ستنزر عند مدخل المدينة فأترقب مروره ثم اطلق عليه النار وهو على فرسه كعادته فاصرعه بلا ريب »

والامر الذي زاد ولف حقداً وضغينة على نابوليون هو ان الحرب التى قدم من أجلها كانت سبباً لتأخير اقترانه بالينا خطيبته المحبوبة اذ ان شيخ المدينة أعلمه أن لا بد من تأجيل الزفاف ريثما تضع الحرب أوزارها

فلعن ولف نابوليون وحروبه الف مرة وقال . « اذا لم يكن في البلاد من يجرأ على قتل هـذا الظالم فأنا هو ذاك الذي يكرس نفسه لتخليص الوطن من عدوه اللدود »

وفي صبيحة اليوم التالى ترك ولف بيته وقصد ساحة المدينة العمومية ليستفهم عن ميعاد قدوم نابوليون . فرأى جماعة من الناس قد أحدقوا بجندي بافاري يسألونه عن سير القتال ويستطلعونه أخبار العراك وهو يقص عليهم ما كان من فوز الجنود الفرنسية وكسرهم جيش الارشيدوق شارل النمسوي . فتقدم ولف من بين الجمهور وسأل الجندي قائلا .

— وأي متى نحظى برؤية نابوليون

فرفع هذا رأسه الى مخاطبه وقال :

— ان نابوليون يأتي ابنسبرج في هذه الليلة أو في صبيحة الغد

على ماقال قائدنا . وهو الآن يدبر الخطط الحربيـة . اني أراك تتعجل ساعة لقائه للتسليم عليه

فقال بصوت منخفض .

— نعم سأسلم عليه بطريقة مبتكرة

ثم تخلص ولف الى بيته ومكث به أياماً حتى اذا أرخى الليل سدوله خرج بسلاحه وتزمل ببجاد أسود فعدا نحو بيت ستنزر المهجور فلما أتاه صعد الى احدى غرفه المطلة على الطريق ووقف الى احدى النوافذ متربصاً لفريسته

فقضى ليلته كلها في الانتظار حتى بزغ الفجر فأخذ يحدق نظره فى الطريق ليرى هل من قادم فلم يبصر أحداً

فلما كان الصباح بان له عن بعد صفان من الخيالة وفي مقدمتهم فارس ربع القامة وعلى رأسه قبعة انفرد بها دون غيره . فعرف انه نابوليون وفرح بلقائه إلا انه ما لبث ان اعتراه اضطراب شديد لم يعهد مثله من قبل كأنه أدرك خطورة ما قد عزم عليه . لـكنه شدد نفسه وأسكن روعه فرفع بندقيته حتى اذا صار نابوليون على بعد بضعة امتار منه صوبها اليه وهم باطلاقها . واذا بيد حديدية قد القت القبض على ذراعه ورمته مغشياً عليه . وهكذا نجا نابوليون من الموت بدون علمه وقد كان منه أدنى من قاب قوسين . فمر بجنده من تحت البيت المهجور ووراءه الـكواكب البـافارية في صفوف كثيفة متقاربة

فلما دخل المدينة كانت الجموع مصطفة على الجـانبين في انتظاره فأخذوا يحيونه ويدعون له . وفي هذه الاثنـاء سمع دوي

Digitized by Birzeit University Library

المدافع وقصف الرصاص فامتلأت السماء جلبة وضجيجاً ولم يكن ذلك احتفالا بالزائر العظيم بل ان المعركة المنتظرة بقرب المدينة كانت قد ابتدأت

فأسرع نابوليون الى بيت انتوان كنزار أحد أعيان البلدة ثم أخذ يستطلع مجرى القتال ويضع الخطط ويصدر الاوامر ثم تناول بعض الطعام من زوادة كانت معه ولما فرغ من الاكل استحضر شلمستر كبير جواسيسه فلما وافاه دار بينهما حديث دونه ادوار كاشو المؤرخ المعروف أثناء سفره الى تلك البلاد . وقد ثبتت صحة هذا الحديث من الوجهة التاريخية

قال نابوليون : ـ هل اكتشفتم مؤامرة على الجيوش الفرنسية التي اضطرت الى المرور بهذه الاصقاع ؟

ـ نعم يا سيدي . ربما كان هناك ما ينيف على ثلاثين مؤامرة

ـ وهل توصلتم الى معرفة مدبرها ؟

ـ علي قبل كل شيء أن اصرف همي لحماية شخصكم الكريم . وقد قبض معاوني وردر على أحد المغرورين وهو يهم بقتل الامبراطور . ولا شك انه قد دفعه الى ذلك تحريض « اخوة الفضيلة » (١)

فتبسم نابوليون بهدوء وقال :

— وبروتس هذا بروسي أم نمساوي ؟

— انه بافاري يامولاي

(١) جمعية الفت لمقاومة نابوليون

فدهش نابوليون وظهرت عليه علامات الاستغراب والاشمئزاز ثم قال :

— كيف ذلك ؟ آتي لنجدة هذه الامة التاعسة اهرق دماء جنودي البواسل لاخلصها من تحكم النمسا في أمورها ولارفع عنها نير العبودية فيكون جزائي الموت !

ثم سكن منه ما جاش وقال :

— وماذا فعلتم بهذا الرجل ؟ احضروه الي في الحال . أريد أن استجلي بنفسي الاسباب التي دعته الى عمله

فلم يمض عشرون دقيقة حتى أقبل شلمستر ومعه لويس ولف يكتنفه شرطيان . فلما مثل هذا امام نابوليون وواجهه واقفاً بين ولي عهد بافاريا وبرتيه استولى عليه الجزع والاضطراب فتأثر من نظرات نابوليون الثاقبة وكأن قوى غير منظورة دفعته اليه فوقع أمامه صارخا : — العفو ! العفو !

فطلب منه نابوليون ان يطلعه على الاسباب التي حملته على عمله فقصها عليه وترجمها له شلمستر

فقال نابوليون : — هذه كلها أسباب لست بالمسؤول عنها . فماذا ذنبي اذا قامت دول أوربا تريد قهري ؟ اما الزفاف الذي أجل بسببي فاني استطيع عقده واني آمر شيخ البلد ان يقرن اليوم لويس ولف بالينالويس وانا أهبه مائة جنيه من جيبي الخاص . أما انت يا برتيه فستقود كتيبة من الحرس وترافق الخطيبين أثناء الاحتفال بزفافهما

ثم نظر نابوليون الى شلمستر وقال :

Digitized by Birzeit University Library

— قل لهذا الرجل اني عفوت عنه واني أتمنى له السعادة والهناء

فلم يكد ولف يصدق ما رأى وسمع وخرج مسرعا الى بيته .

فالتفت اذ ذاك ولي عهد بافاريا الى نابوليون وقال :

— ان كرم أخلاقك يامولاي لجدير بالاعجاب العظيم

فاجابه نابوليون: انى انما قمت بواجب الملك ياسمو الامير والعفو في بعض الاحيان فرض مقدس على الملوك /

نجاة نابوليون في النمسا

من كيد شاب بروسي

فى أول يوليو سنة ١٨٠٩ اتخذ نابوليون قصر شونبرون في النمسامقراً له ولحاشيته . ففيه دبر معركة واغرام الشهيرة التي حاز بها نصراً مبيناً على أعدائه وعقد على أثرها (في ١٤ اكتوبر) صلحاً جلب الذل والهوان على المكسورين . فكان ذلك باعثاً على تكاثر المكايد حوله بقصد اغتيال حياته

وليس بين الذين اقدموا على تحقيق هذه الامنية من كان أقرب الى بلوغ غايته من فريدريك ستابس البروسي

قدم فريدريك ستابس مع غيره من جواسيس بروسيا الى شونبرون في أواخر شهر يوليو اذ ثبت ان نابوليون عقد النية على المكوث فيها . فما برح يترقب الفرص الى ان كان يوم ٢٣ اكتوبر

ففي ذلك اليوم بينما كان نابوليون يعرض جيوشه المظفرة مع

اركان حربه اذا بشاب حسن الهندام يتقدم نحوه . فظن المارشال برتيه انه يحمل عريضة للامبراطور فاشار اليه ان يسلمها اليه

ولكن الشاب اجابه :ـ اني أريد ان أكلم نابوليون بذاته

فقال برتيه : ـ اذا كان لديك رسالة تريد ان تبلغه اياها فخابر ياوره بشأنها

فرجع الشاب بضع خطوات الى الوراء وهو يحدق بنابوليون وكان برتيه قد هم بالرجوع . على انه لم يكد يتحول حتى لحظ أن الشاب أسرع نحو الامبراطورفأمره باللغة الالمانية أن يرجع وقال له انه اذا كان لديه شيء يقوله أو يقدمه ان يكون ذلك بعد عرض الجيش

وما برح الشاب في هذه الاثناء واضعاً يده اليمنى في جيبه وقد برز منه طرف لفافة من الورق ، وظل شاخصاً بنابوليون . فخامر برتيه ريب في مقاصده فرأى من الحكمة ان يبعده عن المكان فأمر ضابطاً ان يقبض عليه ويخفره

وكان الناس منهمكين في عرض الجيش فلم يلحظ احد هذا الحادث. وبعد دقائق قليلة عاد الضابط فاخبر برتيه بان الشاب أودع في مكان أمين وانهم وجدوا في جيبه سكيناً كبيرة ملفوفة بصحيفة ورق ابيض

فلما انتهى العرض ذهب اليه برتيه مع الجنرال دوروك فوجداه ملقى على السرير وأمامه صورة امرأة ومحفظة جيب وقطع من النقود الذهبية . فبادره برتيه بالسؤال :

ـ ما اسمك ؟

Digitized by Birzeit University Library

ـ لا اذكر ذلك الا لنابوليون

ـ ماذا تبغي ان تصنع بهذه السكين ؟

ـ لا اذكر ذلك الا لنابوليون

ـ هل اردت اغتيال حياته ؟

ـ نعم

ـ لماذا ؟

ـ لا اذكر ذلك الا له وحده

وبعد هنيهة اطلع نابوليون على محضر هذا الحادث فامر أن يؤتى بالشاب الى مكتبه . فاتى معقول اليدين وعلى جانبيه جنديان يخفرانه . ولم يكن مثوله امام نابوليون ليحدث له اضطرابا بل ظل هادئاً رابط الجأش وسلم على نابوليون باحترام . واذ ذاك دار الحديث التالي بينهما :

ـ هل تتكلم الفرنسية ؟

ـ قليلا جداً

من اين انت ؟

ـ من نورمبورج

ـ ما مهنة ابيك ؟

ـ قسيس برتستنتي

ـ كم سنك ؟

ـ ثماني عشرة سنة

ـ ماذا اردت ان تصنع بهذه السكين ؟

ـ أن اقتلك

هي صورة امرأة أحبها

ـ انها ستحزن لما ينزل بك

ـ ستحزن لاني لم أنجح . فانها تمقتك كما امقتك أنا

ـ ولكن اذا عفوت عنك هل تعرف لي ذلك ؟

ـ بل انا أعود فأقتلك !

فدهش نابوليون ومن معه من ذلك العناد الغريب وأمر أن يعاد ستابس الى السجن . فلما خرج ستابس قال نابوليون لاعوانه :

ـ ان حادث هذا اليوم عجيب. ومصدر كل ذلك برلين وويمار فان للنساء في هذين البلاطين سطوة لا مثيل لها

وفي يوم ٢٨ اكتوبر غادر نابوليون شونبرون وكان ستابس قد اعدم في صباح اليوم نفسه . وكان يرفض ان يتناول طعاماً كلما عرض عليه لانه ـ كما كان يقول ـ « لا يزال لديه القوة الكافية لاستقبال منيته »

هكذا انتهت حياة ذلك الشاب الغريب الاطوار الحديدي الارادة . وقد كان لهذا الحادث أثر شديد في نفس نابوليون . ومما قاله لاحد أعوانه : « انهم يتوصلون الى اقناع عمالهم حتى بفائدة موتهم »

Digitized by Birzeit University Library

رستم - مملوك نابوليون

قصة الخادم الشرقي الذي جاء به بونابرت من مصر

في أوائل القرن الماضي عصفت على وجه المعمورة عاصفة اقتلعت العروش ودكت الممالك واناخت الرءوس المتوجة عند قدمي جبار عظيم سجدت له الامم اعجاباً . وقد كان يتبع هذا الجبار في حله وترحاله خادم غريب الزي والاطوار لم يفارق سيده الا حين هوى جبروته وبعد قهراً عن سرير ملكه - ذلك الجبار هو نابوليون وذلك الخادم هو رستم المملوك الذي استصحبه من مصر

ولد رستم رضا بن رستم كوفان سنة ١٧٨٢ في مدينة تفليس من بلاد الكرج التي تغنى الشعراء بهوائها العطر وسمائها العسجدية وحياة أهلها الرغدة الهنيئة . وقضى حداثته بين حقول تفليس الزهرة يتنسم اريج الورد والاقحوان . الا ان جمال تلك الديار لم يترك اثراً في فؤاده فما كان بالشاعر المطبوع ولا بالمصور العبقري فقد محت الايام من مخيلته صور تلك الحقول الجميلة الفاتنة . ولا عجب فان الحوادث الغريبة التي مرت عليه لم تدع له مجالا للافتكار والتذكار

وقد ورد في مذكرات مينفال سكرتير نابوليون ان والد رستم كان يتعاطى مهنة الطب وقال غيره بل كان تاجراً . وقد رزق من امرأته اربعة اولاد منهم رستم الذي قضى طفولته بين ذويه حتى سنة ١٧٩٥ وهي فاتحة الحوادث التي انتابته

قال رستم في مذكراته التي نشرت بعد وفاته انه كان يحب امه حباً جماً فكانت تلك العاطفة منشأ رزاياه اذ اثارت غضب والده عليه فطرده من البيت فسار رستم شريداً يطوي البيد والقفار مستعطياً متنقلا من قرية الى قرية . الى أن هبت حرب بين الطوائف التى تقطن تلك الجهات فأوى الى حصن مكث فيه زمناً كالسجين حتى ضجر فهرب ليلحق بأمه وكانت قد ملت الحياة الزوجية فتركت زوجها وولت الادبار مع اولادها فبحث رستم عنها طويلا الى ان وجدها وبعد ايام قضاها الى جانبها انسته همومه ومتاعبه عزم على المهاجرة معها الى مدينة يمكنه القيام فيها بعمل وكانت الحرب قد وضعت أوزارها فحملوا ما خف حمله وانطلقوا . وفيما هم يقطعون الطريق ادركتهم عصبة من النخاسين فساقوهم الى حيث باعوهم بيع الاغنام . وكان ذلك آخر عهد رستم بذويه . فقد اشترته سيدة اعجبت به فتبنته الا ان زوجها لم يرق له وجود ذلك الدخيل في داره فباعه لاحد بكوات مصر وهذا ضمه الى مماليكه

وكانت مصر في ذلك الوقت ولاية تركية يحكمها حاكم من قبل الدولة العلية الا ان مقاليد الامور كانت في الواقع بيد المماليك وهم أصحاب الحل والربط . وقد كان حكمهم شديد الوطأة على الفلاح يستبدون به استبداد السيد بالصعلوك . فما كان استرقاقهم للبكوات الا صورياً وكثيرا ما كنت ترى الواحد منهم يلبس الحرير المزركش ممتطياً جوادا مطهما يتبعه على الاقدام اربعة أو خمسة انفار يحملون عدته وطعامه . فمقتهم المصريون واضمروا لهم الشر الامر الذي ساعد بونابرت على دخول مصر

Digitized by Birzeit University Library

لم يلبث رستم ان نسي أهله وذويه بعد مدة قصيرة قضاها في العز والرخاء وقد اخذه سيده الى مكة للحج وعاد منها بعد شهرين عن طريق سوريا . وهناك وصلهم خبر انتصار الجنود الفرنسية على المماليك . فقصد البك مدينة عكا ونزل ضيفاً على واليها صديقه أحمد باشا الجزار . ولكن الجزار لم يكن ممن يعرفون للصداقة حقاً فانه بعد ايام قليلة تخلص من صديقه البك بأن دس له السم في القهوة . فهرب رستم وعاد الى مصر حيث قدمه احد معارفه الى سيد من اسرة البكري الشهير فاصطفاه وعينه رئيساً على مماليكه

ولما عاد بونابرت من حملته على سوريا خرج السيد البكري فيمن خرج من الاعيان والعلماء وقدم له فرساً كان يقودها رستم . فتقبل بونابرت الفرس شاكراً . وبعد أيام قلائل طلب اليه مملوكين لمرافقته فاعطاه رستم ومملوكا آخر . فابحرا معه على ظهر الباخرة التي اقلته الى فرنسا (الا ان المملوك الآخر لم يمكث طويلا في خدمته) . وقد اهدى نابوليون الى رستم يوم ألحقه بخدمته سيفاً مرصعاً وطبنجتين قبضتهما من الذهب

لم يعترض رستم في سفره شيء جدير بالذكر الا ان رفاق بونابرت كانوا يمازحونه فوسوسوا اليه ذات ليلة ان القائد اصطحبه ليشنقه في حفلة يقيمها لاهل باريس . فصدق المملوك وخاف على نفسه . غير ان بونابرت ضحك كثيراً من سذاجته فازاح عنه تلك المخاوف وطيب خاطره ووهبه كل ما ربح في اللعب مع رفاقه مدة السفر

ترك بونابرت مملوكه في مرسيليا وكان محط انظار الناس وخصوصاً

السيدات اللواتى اقبلن عليه يداعبنه ويمازحنه وقضى أياماً على هذه الحال حتى آن وقت الرحيل فقام مع سائر خدم القائد فحملوا الامتعة وساروا الى باريس . غير أن عصبة من اللصوص اعترضتهم في الطريق بجوار اكس واستولى اللصوص على متاع بونابرت وهجم أحدهم على رستم وأخذ منه سيفه المرصع وكيس نقوده وكان فيه ستة آلاف فرنك

وقد سرت جوزيفين امرأة بونابرت بالمملوك سروراً جماً اذ أعجبها شكله وهندامه فاستعاضت به عن خادم صيني كان عندها . وقد اتهمها أعداؤها فيما بعد بانها ضمت رستم الى فريق عشاقها وانها اتخذته خليلا . ولاريب ان جل غرض بونابرت من استحضار رستم كان ارضاؤها أولا ثم بهر أبصار الباريسيين . فلم يكن له عمل سوى الظهور بحلته الغريبة في معية « القنصل » ولما انتقل بونابرت الى المنزل الذي وهبته اياه الحكومة عهد الى رستم بحراسة غرفته ليلا فكان ينام عند الباب ولا يأذن لاحد بالدخول على سيده . وقد حدث مرة ان جوزيفين ظنت ان زوجها يساوم امرأة فارادت مباغتته فاصطحبت احدى وصيفاتها في الليل وما اقتربتا من باب الغرفة حتى سمعتا غطيطه المزعج فارتعبت جوزيفين والقت المصباح الذي كان بيدها على الارض وفرت هاربة تتبعها وصيفتها

وفضلا عن حراسة بونابرت ليلا كان رستم مكلفاً في الصباح بمساعدة سيده في حلاقة ذقنه . وكثيراً ما كان ينتهره نابوليون صارخاً في وجهه : اعدل المرآة أيها الحمار . من حسن حظك ان سيدك ليس مصريا وإلا لكان قطع رأسك » . وبعد الحلاقة كان

Digitized by Birzeit University Library

رستم يدلك جسم بونابرت بماء الكولونيا ثم يصحبه الى مكتبه فلا يفارقه لحظة. قال كلبر ان بونابرت لم يحب أحداً ولكنه كان يجذب اليه القلوب بما يهب من العطايا والهدايا . فقد كان يعطي رستم كل ما يربحه من القمار . وقد بلغ ما وصل ليد رستم في خمسة أيام متوالية ثلاثة آلاف فرنك. وكانت هذه المنح مدعاة لحسد الخدم وبغضهم. ولم يكن بغض بعض الناس للمملوك باقل من بغض أولئك الخدم وقد ادعوا ان عطف الامبراطور على مملوكه انما نجم عن ان هذا الاخير كان يمثل دور الوسيط بينه وبين عشيقاته وانه كان يعهد اليه سراً بقتل من كان لا يجسر على قتلهم جهاراً

كان رستم يلازم بونابرت في حله وترحاله كأنه ظله حتى في حفلات استعراض الجيش فقد كان رستم يركب جواده العربي ولباسه من الدمقس المشغول بالذهب الخالص وسرج فرسه جلد نمر منقوش بالذهب أيضاً فيسير خلف سيده كأمير في معيـة قائد . وكثيراً ما كان يرافق بونابرت الى التمثيل وهنالك كانت الانظار تتوجه الى ثيابه الفاخرة معجبة بهنـدامه . وكان قلما يحضر تمثيل رواية الا ذكرته الجرائد في تعليقاتها . أما في الشوارع فكانت الجموع تتبعه الى مسافات بعيدة هاتفة له وهو يسير في طليعتهـا كأعظم عظيم لا يبالى بما يقال حوله . أما النساء فكن يعجبن به اعجابهن بكل غريب جديد حتى لقد اقتبسن هندامه وجعلن من لباسه زياً (موضة) أطلق عليه اسم « الزي الرستمي » فكنت ترى السيدات ومنهن جوزيفين ـ ومثلها أيضاً لويزة ملكة بروسيا ـ يفاخرن بهذه الملابس الرستمية . وكثير من الامهات خطن لأولادهن ثياباً على شكل

ثياب المملوك . بل ان العدوى سرت الى نابوليون نفسه فصنع لباساً مثل لباس مملوكه . وقد عكف أبرع مصوري ذلك العهد على رستم المملوك ونشرت المجلات صورته بحلته الرسمية فطار اسمه وذاع صيته في جميع الاقطار الاوربية . ولما قرب ميعاد حفلة التتويج (أي تتويج نابوليون امبراطوراً) عهد الى خياط البلاط بصنع لباس خاص للمملوك فعمل له بذلتين كلفت احداهما سبعة آلاف فرنك والاخرى نيفاً وثلثمائة فرنك وكلف الحذاء مائة وعشرين فرنكا . وهي مبالغ جسيمة في ذلك العهد . وفي يوم الحفلة لبس المملوك حلته الثمينـة وحمل سيفه المرصع وامتطى جواده وسار منفرداً في طليعة الموكب أمام عربة الامبراطور بين استحسان الجمهور المصطف على الجانبين ودهشته

* * *

قضى رستم أسعد أيام حياته في ظل الامبراطور نابوليون الاول وكان له في البلاط مركز حسده عليه الخاص والعام . فكان في أيام الاحتفالات يجلس على عتبـة العرش وكان يركب خلف الامبراطور في عربته واذا فتح مدينة دخلها ورستم يتبعه حتى ظنه الناس أعظم رجل في الامبراطورية . وكان كثير منهم يستعطفونه ويلتمسون وساطته لدى نابوليون

وفي المدة التي كان يمضيها نابوليون في باريس كان رستم يقضي كل يوم ساعة أو ساعتين في زيارة بعض معارفه وخصوصاً أولئك الذين كانت لهم بنات جميلات . أما في الميدان فلم يكن لديه دقيقة واحدة يتصرف بها اذ كانت تقتضي أعماله ملازمة الامبراطور

Digitized by Birzeit University Library

يحمل له ما يحتاجه ويحضر له الطعام . ولم يكن لنابوليون ساعة معينة يتناول فيها طعامه وكثيراً ما كان ينام بدون أكل . وحدث يوماً ان نابوليون دخل في منتصف الليل الى مخدعه ولم يطلب طعاماً فانتهز رستم الفرصة فأكل نصف دجاجة كانت معدة لسيده ولكنه لم ينته منها حتى ناداه نابوليون وأمره باحضار الدجاجة فتقدم رستم بما بقي منها . فنظر اليها نابوليون طويلا ثم حول نظره الى المملوك قائلا: « ما كنت أعرف حتى الساعة ان لبعض الدجاج جناحاً واحداً وفخذاً واحداً وما كنت أحلم انني آكل يوماً فضلات غيري . . . » فارتعب رستم واصفر وتمتم قائلا : « كنت جائعاً يا مولاي فأكلت الفخذ وبعده الجناح . فسكت نابوليون وأكل ما بقى . وفي الصباح استدعى نابوليون احد قواده ليعطيه بعض التعليمات وكان رستم واقفاً بجانبه فقال للقائد : « اتعلم أني تعشيت البارحة من فضلات السيد رستم . تقدم يالعين لاشد اذنك . اياك أن تعود الى مثل فعلتك » ثم اغرق نابوليون في الضحك

وقد كان للمملوك حظوة في اعين النساء . وله حوادث غرامية كثيرة كان يقصها على سيده اجابة لطلبه . ففي مصر تعلقت به احدى كريمات عائلة رفيعة النسب وفي اجاكسيو - مسقط رأس نابوليون حيث وقفت الباخرة التي أقلتهم من مصر ستة أيام - كان رستم موضع اعجاب فتيات المدينة . أما في فرنسا فقد رأينا كيف أن السيدات تهافتن عليه وكيف اتخذن من لباسه زياً . وكانت جوزيفين تعنى به عناية خاصة فاذا مرض عادته كل يوم . وقد حدث ان رستم أصيب يوماً بمرض فتعذر عليه مرافقة بونابرت الى ايطاليا

فلما أظهر أسفه لعجزه عن مرافقة سيده قال له : « لا تحزن فانني سأعود سريعاً وستغنى بك زوجتي وهي لاتبخل عليك بشيء » . وكانت هورتانس ابنة جوزيفين من زوجها الاول تستدعي رستم الى حجرتها لتصوره بالزيت وهنالك كان يتولاه النعاس فتهزه هورتانس قائلة : « لا تنم يارستم فساغني لك أغنية لطيفة » . وكانت تعطيه هدايا كثيرة . وقس على ذلك ماكان من معاملة سائر سيدات البلاط حتى ان كارولين مورات (شقيقة نابوليون التي صارت فيما بعد ملكة ايطاليا) سعت لانتقاء عروس له فوقع خيارها على ابنة احدى العائلات الشريفة وقبلت والدة الفتاة ان تزوجها برستم نظراً لمركزه السامي لدى سيده . ولكن نابوليون لم يقبل بها حليلة لمملوكه

على انه لم يلبث أن وقع في حبال الآنسة دوفيل كريمة « تشريفاتي » جوزيفين فطلب رستم الى سيده الاذن له بزواجها فسأل نابوليون : «وهل لديها كثير من المال ؟ » فاجابه : « لاأظن يامولاي على أني لست محتاجاً الى شيء من هذا القبيل طالما اني في خدمة جلالتكم » فأقره نابوليون على طلبه على ان لايعقد الزواج قبل انتهاء الحملة التي كان يدبرها ضد النمسا . وبعد اربعة اشهر قضاها رستم وهو على أحر من الجمر متنقلا في ظل نابوليون من ميدان الى آخر وأجنحة النصر مرفرفة فوق رأسه قفل راجعاً الى باريس ، وفي اليوم الاول من شهر فبراير سنة ١٨٠٦ زفت الآنسة الكسندرين دوفيل الى رستم مملوك الامبراطور في حفلة حضرها نابوليون ودفع نفقاتها من جيبه الخاص (وقد بلغت الفاً واربعمائة

Digitized by Birzeit University Library

فرنك) . وبعد سنة رزق رستم صبياً سماه اشيل فهنأه نابوليون بمولده قائلا : « لقد اصبح لدي الآن مملوكان وارجوان يحل ابنك يوماً محلك » وكان نابوليون يستدعي الطفل الى غرفته ويلاعبه ثم يعيده الى امه بعد ان يملأ يديه ذهباً

* * *

مرت الايام وتوالت السنون ونابوليون يتوغل في بلاد اوربا فاتحاً عواصم ممالكها تخفق فوق رأسه اعلام النصرحتى آنت الساعة الرهيبة فاتحدت عليه الدول واراد الله ان يضع حداً لغلوائه فهيأ له حملة روسيا وهنالك في غاباتها المظلمة ادرك ملاك الموت جيوشه الجرارة فابتلعها لقمة واحدة وعاد نابوليون من حيث اتى مطأطىء الرأس وحيداً لا انيس له ولا رفيق سوى ذلك المملوك الذي لم يلبث ان خانه مثل ما خانه أولئك الذين رفعهم الى مصاف الامراء والملوك

على انه لم يكن يخطر ببال أحد ان المملوك الذي عاش في ظل نابوليون في ايام العز والرخاء والذي ميزه على خدمه العديدين واجزل له العطاء سيخونه تلك الخيانة الشنيعة يوم هوى نجمه من سماء المجد . ففي ٦ ابريل سنة ١٨١٤ تنازل الامبراطور العظيم عن عرشه وتأهب للرحيل الى جزيرة البا فلم ترق لرستم مرافقته اليها ومع ذلك ذهب ليشاور امرأته في الامر وكانت تسكن خارج باريس فقالت له ان الواجب يقضي عليه بمرافقة سيده اينما ذهب . فعاد الى نابوليون وما كان هذا يظن ان مملوكه سيعود اليه بعد أن رحل بلا اذن . وفي صباح اليوم التالي لعودة رستم عزم نابوليون على الانتحار فتناول جرعة من السم كان يحملها في حقيبته ولكن الطبيب استدعي في الحال

وتمكن من انقاذه . وفي اليوم الثاني طلب الى رستم ان يعطيه مسدسه فاستشار هذا المارشال برتيه فاجابه بان افعل ما بدا لك . ولكن أحد أصحاب رستم أشار عليه بالا يفعل وحذره من الامر قائلا : « اذا انتحر نابوليون سيظن الناس انك قتلته مأجوراً من قبل اعدائه » . فانتحل رستم هذا العذر ليغادر نابوليون نهائياً وهو أمر لم يكن متوقعاً ولا سيما من شخص مثله أجزل له سيده العطاء وعامله معاملة الاسياد . وقد سأل عنه نابوليون عند ركوبه العربة التي أقلته الى منفاه فلما علم ان مملوكه غدر به كغيره أظلمت الدنيا في عينيه

* * *

ويجدر بنا هنا ان نقتطف من مذكرات المملوك ما ذكره عن المال الذي انعم به عليه نابوليون . قال رستم انه لم يعين له في بادىء الامر مرتب يتقاضاه مثل سائر الخدم ولم يفطن سيده لذلك فلما علم به صدفة أصدر أمره بمنح رستم راتباً قدره ١٢٠٠ فرنك زيد فيما بعد الى ٢٤٠٠ وقرر علاوة على ذلك اعطاءه ٢٤٠٠ فرنك في نظير حمله بندقية الامبراطور في الصيد و ٩٠٠ فرنك بصفة هبة مستديمة يتقاضاها سنويا . ثم ان نابوليون كان يعطيه غير ذلك جميع ما يكسب في اللعب كما ذكرنا سابقاً وقد وهبه كثيراً من المال في أيام الاعياد والحفلات منها ٢٠٠٠ فرنك في سنة ١٨٠٨ و ٣٠٠٠ في سنة ١٨١٠ و ٤٠٠٠ في سنة ١٨١١ و ٦٠٠٠ في سنة ١٨١٣ و ٦٠٠٠ في سنة ١٨١٤ ثم منحه قبل تنازله عن العرش بقليل من الزمن ٥٠٠٠ فرنك دفعة واحدة

Digitized by Birzeit University Library

يتضح من ذلك ان نابوليون لم يبخل على مملوكه . وقد كانت خيانته اعظم من خيانة الآخرين في نظر نابوليون ولم يذكر مملوكه مرة في منفاه الا لعنه

* * *

قضى رستم بقية حياته بعد سقوط نابوليون في دوردان حيث اشترى منزلا وعاش منسياً من الجميع إلا من الذين عرفوه شخصياً أيام عز نابوليون فهؤلاء كانوا يذكرونه باحتقار . ومما ساعد على سقوطه من أعينهم انه سافر بعد نفي سيده مرتين الى انجلترا وهناك ـ أمام أعداء الامبراطور الالداء ـ كان يلبس حلته الرسمية لا لغرض الا ابتزاز المال . وقد باع للانجليز بعض الهدايا التي أهداه اياها الامبراطور وغيره من رجال البلاط ومن تلك الهدايا قطعة من الذهب نقش عليها : تذكار من نابوليون الى رستم مملوكه الامين

توفي رستم في ٧ ديسمبر سنة ١٨٤٥ وكان قد مات قبله ابنه اشيل وابن آخر ولد له بعد ذاك ولم يبق من عائلته إلا ارملته وابنتها التي تزوجت تاجراً فرنسياً . وقد دفن في مقبرة دوردان وحفر على قبره ما يأتي :

هنا يرقد رستم رضا مملوك الامبراطور نابوليون
ولد في تفليس (جورجيا) وتوفى في دوردان عن ٦٤ سنة قضى تاركا حسرة لعائلته التي كانت تعزه عن جدارة فليرقد بسلام بين أولئك الذين عرفوا قدره وأحبوه

نابوليون و بتسى

قصة تاريخية حدثت في جزيرة القديسة هيلانة

صدر في انكلترا في الربع الثاني من القرن التاسع عشر كتاب لاحدى السيدات الانكليزيات تدعى مسز اربل وصفت فيه جزيرة القديسة هيلانة ابان اعتقال الامبراطور نابوليون بونابرت فيها وروت الحوادث الغريبة التي حدثت لها معه

وليس لهذه السيدة صورة نقدمها للقراء حتى يعرفوا من هي تلك التي أحبها نابوليون في منفاه . ولم تصف لنا هي نفسها في مؤلفها المار ذكره شأن أكثر الكاتبات . الا ان بعض الكتاب والمؤرخين الذين بحثوا في سيرة نابوليون قد اهتموا بوصفها فوجدوا انها كانت شقراء نحيفة الجسم جميلة الوجه لها عينان براقتان وقامة هيفاء وكان عمرها في سنة ١٨١٥ اربعة عشر ربيعاً ولكن هيئتها كانت تدل على انها أكبر من ذلك رغم الملابس القصيرة التي كانت تلبسها . اما اسمها فكان اليزابت او « بتسي »

وكان والدها المستر جيمس بالكومب يسكن جزيرة القديسة هيلانة منذ عشر سنوات ويشغل وظيفة وكيل شركة ملاحة الهند وكان يتعاطى حرفاً أخرى شتى مثل أعمال البنوك وتوريد لوازم السفن ونحو ذلك . وكان هذا الرجل مهذاراً خفيف الروح ذا مكانة وصولة عند كبار موظفي الجزيرة وسائر سكانها وكان رؤساء البحرية الانكليزية ينزلون عنده في أثناء مرورهم بالجزيرة لأنه علاوة على

Digitized by Birzeit University Library

الحرف المذكورة سابقاً كان لديه فندق يأوي اليه السائحون وكان هذا الفندق قائماً في وسط حديقة غناء فسيحة الأرجاء على مقربة من منزله

وكان مستر بالكومب في أول أمره وحيداً في الجزيرة بعيداً عن أهله وعائلته ثم وافته اليها زوجته مع ابنتيها جني وبتسي وكانت جني أكبر من أختها سناً رزينة هادئة الطبع بخلاف بتسي التي كانت تقضي نهارها في اللعب والركض على الحشيش والازهار وقلما كانت تعير دروس والدتها التفاتاً غير انه كان لها المام قليل بالفرنسية وكانت تجيد الرقص والغناء والضرب على الآلات الموسيقية قيل انها كانت تسحر ألباب سامعيها وتسبي عقولهم لدى توقيعها بلطف ودلال على القيثارة

خبر شؤم أوقع الرعب في القلوب

وكان أهالي الجزيرة يجهلون كل الجهل الحوادث الخطيرة التي طرأت على أوربا في خريف سنة ١٨١٥ ـ كانوا يجهلون مغادرة نابوليون لجزيرة البا قرب سواحل ايطاليا الغربية حيث كان منفياً ورجوعه الى فرنسا وتقلده زمام الملك فيها بعد فرار لويس الثامن عشر وان ممالك أوربا اتحدت لمحاربته فحملت عليه حملتها الاخيرة وكسرته شر كسرة في موقعة واترلو . ففي أوائل شهر اكتوبر من تلك السنة قدم الى الجزيرة ضابطان انكليزيان حاملين تلك الاخبار المدهشة التي لم يستطع تصديقها المستر بالكومب وسائر سكان الجزيرة لشدة غرابتها . وكانت بتسي تصغي الى حديثهم فعرفت ان

بونابرت أصبح أسير انكلترا وان ممالك أوربا حكمت عليه بالنفي وانه واصل بعد قليل الى الجزيرة ليقضي فيها البقية الباقية من حياته

ولم يكن لبتسي أدنى معرفة بالتاريخ وكل ما كانت تعلمه عن نابوليون هو ان له عيناً في جبهته يتطاير منها الشرر وأنياباً طويلة مخيفة مثل الوحوش الضارية وانه يأكل الاولاد وان فظاعته فاقت بكثير فظاعة اكبر اللصوص المذكورين في قصص الاولين وخرافات السنين الغابرة وانه سود التاريخ بأعمال شنيعة لا تحصى . وتلك الاحاديث كانت شائعة وقتئذ بين جميع البنات الانكليزيات اللواتي من سن بتسي . فلا غرو اذا دهشت بتسي دهشة شديدة عندما رأت والدها يقابل ذلك الخبر برباطة جأش وسكون تام مما زاد اعتقادها بشجاعته وقوة بأسه

وفي اليوم التالي ركب المستر بالكومب زورقاً قاصداً البارجة « نورثمبرلند » التي كانت تقل نابوليون ورفاقه . فتساءلت بتسي والخوف ملء قلبها عما اذا كان والدها يمكنه العود الى الجزيرة بعد مقابلة ذلك الوحش . وقد فاقت دهشتها خوفها عندما رأته عائداً صحيحاً سليما فاستقبلته ببهجة وسرور وبادرته بهذا السؤال : « هل رأيته يا والدي وكيف هو ؟ » فأجابها بأنه لم يفز بلقياه وان قبطان البارجة قدمه الى بعض أفراد بطانته منهم مدام برتران ومدام ده مونتولون فهدأ خاطرها قليلا . أما بونابرت فكان قد تقرر انزاله الى الجزيرة عند المساء وأخذه الى منزل في جيمس تاون يسكن

٢٠٢

Digitized by Birzeit University Library

فيه مع حاشيته ريثما يتم ترميم بيت قديم في لونجود ينتقل اليه بعد ذلك . وقد وقع اختيار أولى الشأن على هذا البيت لأنه في الجهة الوعرة من الجزيرة

ولما حانت ساعة الغروب اخذ المستر بالكومب عائلته الى الميناء حيث كان أهالي الجزيرة في انتظار بونابرت . قالت المسز اربل في مذكراتها انها لم تر شيئاً يذكر في ذلك اليوم لشدة خوفها من الغول ولا تتذكر الا انها أبصرت زورقاً صغيراً يقل ثلاثة أشخاص منهم الاميرال كوكبورن والمارشال برتران وبينهما رجل ثالث لم تتبينه لظلام الليل وللخوف العظيم الذي استولى عليها ولكنها رأت على صدر ذلك الرجل بين طيات ردائه الطويل نجماً ساطعاً من الالماس يلمع كالبرق

ورجعت بتسي في ذلك المساء الى بيتها قلقة نادبة حظها وحظ سكان الجزيرة فكانت تقول في نفسها : « لقد فات وقت النعيم وآن وقت الجحيم بحضور هذا الرجل . اني لن أعود أخرج الى الحديقة خوفا من لقائه » وحلمت بتسي طول ذلك الليل أحلاماً مخيفة رهيبة

المقابلة الاولى مع الغول

وفي صباح اليوم التالي أخذ الغول يطوف في الجزيرة وكان بالكومب وعائلته مختبئين وراء حاجز منيع من الاشجار ينظرون اليه بمنظار عن بعد وكان يلبس قبعة خاصة تميزه عن سائر الاهلين . فرأوه ممتطياً جواده على طريق لونجود وبجانبه بعض رجاله . وفي

الساعة الرابعة بعد الظهر عاد مع رفاقه في طريق جيمس تاون وشاهدتهم بتسي واقفين عند ملتقى طريق المدينة بالطريق المؤدي الى منزلها . وبعد مداولة قصيرة عرج نابوليون وأصحابه على فندق بالكومب فخافت بتسي خوفاً شديداً وصارت تصيح صياحا عالياً وأركضت الى الفرار الا ان والدها أمسكها وتقدم بها نحو الفرسان وكانوا قد وصلوا ونزلوا جميعاً عن جيادهم إلا نابوليون

فشددت بتسي عزيمتها ورمته بنظرة ملؤها الرعب . وكان مرتديا ثوبا أزرق وفي صدره ذلك النجم اللامع وبردعة جواده من الديباج القرمزي الموشى بالذهب . وكان جواده الاسود — ذلك الجواد الذي جاب ساحات القتال والنصر حليفه والذي تحدث عنه الشجعان وحسده الفرسان وتناشده الشعراء — يعض اللجام مضطربا والزبد يتدفق من فمه كأنه يتمنى العودة الى ساحات الوغى

نزل نابوليون عن جواده فقدم له الاميرال كوكبورن المستر بالكومب وابنتيه فحياهما الامبراطور وبعد ان أظهر اعجابه بموقع منزل بالكومب تناول مقعداً كان هناك وجلس عليه

فاخذت بتسي تنظر اليه طويلا وتتأمل فيه ملياً فاخذت تزول مخاوفها شيئاً فشيئاً بل انها أصبحت شديدة الاعجاب به . قالت : لم أكن أظنه قبل مشاهدته انساناً كسائر الناس ولكني بعد ان رأيته أعجبت بجماله وهيبته وكان يعلو وجهه شيء من الاصفرار ودلائل الثبات والعزيمة بادية على وجهه تبعث في قلب الناظر اليه

Digitized by Birzeit University Library

عاطفة الحب مع الوقار . وكان يبتسم من وقت الى آخر ابتسامة جذابة أما عيناه فقد كان الشرر يتطاير منهما وكان شعره الضارب الى السواد ناعماً مثل شعر الاولاد وله صوت يأخذ بمجامع القلوب وكان يخاطب الحاضرين بكل بساطة وبشاشة وأظهر اعجابه بحديقة بالكومب ثم أعرب عن ميله الى اتخاذ الفندق مسكناً له وطلب ان تضرب له خيمة في الحديقة . وبينما كان الخدم يقومون بهذه المهمة جلس على الحشيش وطلب الى بتسي الصغيرة أن تجلس بجانبه

وكان قد هدأ خاطرها وزالت مخاوفها فسألها هل تعرف اللغة الفرنسية فاجابته والخجل يعلو وجهها ان نعم . ثم القى عليها بعض الاسئلة في علم الجغرافية فدارت بينهما المحاورة التالية

ـ ما هي عاصمة فرنسا

ـ باريس

ـ وعاصمة ايطاليا

ـ روما

ـ وعاصمة روسيا

ـ الآن بطرسبورج وكانت موسكو العاصمة سابقاً

وعندما سمع نابوليون اسم موسكو هب واقفاً ونظر اليها بنظره الحاد وسألها بلهجة شديدة : ـ وهل تعرفين من أحرقها ؟

فرجعت اليها مخاوفها عندئذ وأدركت ان ذلك الرجل الذي تحادثه كان رب العالم وملك الملوك فاحست بضعف شديد ولكنها تمالكت نفسها وأجابته :

ـ لا أعلم يا سيدي من هو

فضحك منها وقال لها : ـ بل انك تعرفينه تمام المعرفة . هو أنا

فلما رأته يضحك لها هدأ روعها وشددت عزيمتها وقالت :

ـ أظن ان الروس هم الذين أحرقوا المدينة لطرد الجنود الافرنسية من بلادهم

فاعجبه جوابها وضحك ثانية ثم أمسك يدها وتمشى معها قليلا في الحديقة

وبعد أن تناول نابوليون طعام العشاء قصد منزل بالكومب لتمضية ساعة من الزمن ولم يكن في ذلك المنزل من يعرف الفرنسية سوى بتسي فجلس اليها يحادثها ويسألها عن دروسها وأخيراً طلب منها ان تسمعه قطعة من الموسيقى فتناولت آلة الطرب ووقعت عليها لحناً يتغنى به السكتلنديون فقاطعها نابوليون قائلا : « اني لا أستحسن كثيراً هذه القطعة ومع ذلك أعتقد انه لا يوجد أحسن منها في كل الموسيقى الانكليزية وهي احقر موسيقي في العالم ولكي ابرهن لك على ذلك فسأسمعك دور « ليعش هنري الرابع » . ثم وقف وأخذ يغني ذلك الدور . وبعد أن فرغ سأل بتسي عن رأيها فلم تخف استخفافها بصوته وقالت له : ليس في هذه القطعة شيء يستحسن مطلقاً فضحك نابوليون وانصرف مودعا

غول لا يخشى بأس

لم تعد بتسي تخاف هذا الغول وكانت في صباح كل يوم عند ما

Digitized by Birzeit University Library

تهب من النوم تذهب الى الفندق حيث كان يقيم نابوليون وتدخل عليه بدون استئذان رغم الحجاب . وكثيراً ما كانت تلقاه يتحادث مع الكونت لاس كازاس فتقاطعهما وتلهيهما وكانت أحيانا تبعثر الاوراق الموجودة على مكتبته وتجبره على الخروج معها الى الحديقة، كل ذلك ونابوليون يضحك لها طربا مسرورا وكانت تعاكسه بلا انقطاع فاذا أراد الجلوس اضطرته الى الركض أو اراد الكلام منعته عنه وكثيراً ما كانت تأمره فيطيع أوامرها صاغراً ! ان هذا الرجل العظيم الذي كان يخشى ان يضيع دقيقة واحدة من وقته سدى أصبح بصحبة بتسي ولداً يلعب ويضحك ناسياً منفاه ومصائبه

وأصبحت بتسي لا تحفل به ففي ذات يوم اخذته الى جهة من الحديقة يشتغل فيها عبد من اهالي جزيرة سومترا وقع في شرك تجار الرقيق فباعوه في جزيرة القديسة هيلانة الى المستر بالكومب فقدمته الى العبد . وكانت تسر كثيراً بان تجمع بين هذين الاسيرين لتسمعهما يتحادثان معاً . وكثيراً ما كان يجزل نابوليون العطاء الى هذا المسكين الذي آنس فى مخاطبه رجلا عظيما بدون أن يعرفه . وكان العبد يقص عليه احزانه وشجونه العديدة ونابوليون يخفف عنه آلامه باطيب العبارات

وكانت بتسي اذا رأت ان المحادثة قد طالت تطرد العبد وتأمر نابوليون ان يقتفي أثرها فيفعل صاغراً مطيعاً

وبعد قليل من الزمن أصبح هذا الرجل العظيم كلا شيء في عين بتسي بل كانت تزدريه وتهينه . وكان لديها لعبة تمثل نابوليون بونابرت يصعد سلماً عاليا ترمز كل درجة منه عن مملكة من الممالك الاوربية

وعند ما يصل أعلى السلم ويجلس على الكرة الارضية كلها تزل قدمه ويقع الى الاسفل - في جزيرة القديسة هيلانة . وكانت هذه اللعبة شائعة بين الانكليز في ذلك الحين ولم يكن نابوليون يحقد منها عند تهكمها عليه بها . وفي ذات يوم اخبرته ان لها صديقة تدعى ليج تخاف من غول كورسيكا الى درجة الجنون حتى انها لم تعد تزورها لتتجنب ملاقاته فطلبت اليه ان يدبر معها مكيدة لصاحبتها هذه . فصار الاتفاق بينهما على أن تذهب بتسي لتأتي بمس ليج وان يظهر هـو لهما بصورة حيوان ضار ويهجم على الزائرة. وفي اليوم المعهود اتت مس ليج لتزور صاحبتها فخرج اليهما نابوليون وهما في الحديقة وكان قد اشعث رأسه وحملق عينيه وكشر عن انيابه فهجم على الفتاة فاستولى عليها رعب لا مزيد عليه وأخذت تصرخ صراخا هائلا ووقعت على الارض مغمى عليها . فسر نابوليون لنجاح عمليته وأراد أن يجربها مع بتسي. فزاد في تشنيع هيئته وهجم عليها هجمة الحيوان الكاسر فضحكت بتسي من شكله فاستجمع الامبراطور كل قواه وصرخ صرخة مزعجة ولكن بتسي كانت كلما رأته يجهد نفسه في تخويفها تعلو قهقهتها . تلك هي المرة الوحيدة التي أظهر فيها نابوليون استياءه منها وغضبه عليها لفشله في تخويفها

من حفر حفرة لاخيه وقع فيها

ولكن بتسي بالكومب لم تكن لتأذن له أن يغضب عليها وكانت تعرف كيف تنتقم منه

مرت على الحادثة المتقدم ذكرها بضعة ايام لم يظهر الامبراطور في

Digitized by Birzeit University Library

خلالها عطفه السابق نحوها فدبرت له مكيدة واغتنمت فرصة وجوده في الحديقة قريباً من بركة اعتاد الجلوس على شاطئها فأتت بكلب ضخم للاميرال كوكبورن كان يحب الاستحمام فجعلته ينزل في البركة وحالما غادر الماء نادته قريباً من نابوليون فانتفض الكلب بشدة وامطره ماء ووحلا ثم اقترب من نابوليون واخذ يتمسح به . كل ذلك وبتسي تضحك طربا لما نال صاحبها

ولما وصل خبر هذه الحادثة الى المستر بالكومب غضب على ابنته غضباً شديداً وأمر بسجنها مدة أسبوع في غرفة صغيرة كانت مخزناً للمشروبات فقابلت بتسي هذا الحكم في بدء الامر بدون اكتراث ولكنها عند ما اتضح لها ان سجنها يأوي فيراناً كثيرة اكتنفتها من كل جانب تولاها الذعر وندمت على ما فعلت . ولكي تتخلص من هجوم الفيران المتواصل أخذت ترميها بزجاج النبيذ الواحدة تلو الاخرى . ودامت تلك الحرب طول الليل

ولما بزغ الفجر أخذ اليها العبد طعام الصباح فوجدها ملقاة على الارض سابحة فى بحر من النبيذ وقد أسكرتها رائحته

وأظهر الامبراطور اسفه الشديد واستياءه من هذا العقاب الصارم فاطلق سراحها وقد اعجب كثيراً بالطريقة التي دافعت بها عن نفسها وأثنى على شجاعتها

وبعد مدة قصيرة فعلت بتسي مع صديقها ما استوجب سجنها ثانية فسجنت في غرفة اخرى لا نبيذ فيها فكان نابوليون يتردد الى السجن ويجلس أمام نافذتها يشاطرها الحديث تارة ليخفف عنها ألم

السجن وأخرى يقلد حركاتها ضاحكا مستهزئاً

هكذا كان نابوليون بونابرت ذلك الرجل العظيم الذي ملك العالم أنسته تلك الفتاة الضئيلة سجنه بل أنسته نفسه ولكنها في الوقت ذاته أنسته بعض احزانه وآلامه

قصة ثوب حفلة الرقص

أرسلت مس بتسي بالكومب يوماً تدعو نابوليون بونابرت اليها فلبى دعوتها للحال فارته ثوبها الجديد المعد لحفلة الرقص التي عزم على اقامتها الاميرال كوكبورن فاعجب الامبراطور بصنعه وامتدحه

وبعد محادثة قصيرة طلبت اليه أن يلعب معها لعبة الورق وكان الرهن عشرين فرنكا اذا غلبته وعشرة فرنكات اذا غلبها هو . ولما كانت هذه القيمة كل ما تملكه يداها أخذت تلعب بحذر شديد والخوف باد على محياها . الا انها بعد قليل أوقفت غريمها متلبساً بجريمة الغش فاحتجت عليه وقالت انها لن تدفع له شيئاً اذا خسرت . فضحك نابوليون ورمى بالورق فاستاءت من ذلك وسبته فسبها وعلت أصواتهما وألح نابوليون على غريمته بأن تدفع الرهن فرفضت فقام نابوليون واختطف ثوبها وولى هاربا فركضت وراءه ولكنه سبقها الى الفندق واقفل الباب في وجهها

ولما تحققت ان نابوليون لن يرد الثوب اليها أخذت تصيح وتناديه من الخارج ولكنه لم يجب عليها فبكت وسبت وتوعدت من غير

جدوى. ولما عيل صبرها رجعت بخفي حنين ساخطة على الامبراطور وعلى الساعة التي عرفته فيها

وبعد مدة وجيزة ارسل اليها نابوليون رقعة من الورق كتب فيها انه عازم عزما أكيداً على ابقاء الثوب عنده وعزاها عن الليلة الراقصة التي لن يتسنى لها حضورها . فثار غضبها ولم يغمض لها جفن طول الليل وهي تفكر في ذلك الرجل الجهنمي قائلة في نفسها : حقاً انه يستحق النفي بل الموت وقد فهمت الآن السبب الذي جعل دول اوربا تكرهه وتمقته الى هذا الحد

ولما بزغ الفجر عادت اليها بعض الآمال فقصدت الفندق وطلبت الدخول فمنعها الحاجب قائلا ان جلالته لا يزال نائماً. وظل نابوليون محتجباً عنها طول ذلك النهار

وبلغ غيظها الدرجة القصوى في المساء اذ رأت أمها وأختها تتأهبان للذهاب . وبعد قليل أتت العربة لنقلهما الى منزل الاميرال فطار عقلها . وبينما كانت المسز بالكومب وابنتها تهمان بالركوب حضر نابوليون حاملا ثوب بتسي مزدانا بالازهار فقدمه اليها قائلا هاهو ثوبك ايتها الآنسة اللطيفة فالبسيه واذهبي بسلام محفوظة بعناية الله واني أتمنى لك ان تمضي ليلة سعيدة

مراعبة غليظة

ولم تكن هذه الحادثة الا لتمكن العلائق الودية بين نابوليون وبتسي غير ان الحرية التي كان يمنحها اياها افسدتها وجعلتها تتطاول عليه

ومما روته في مذكراتها ان نابوليون أراها يوما سيفا بديعاً له غمد موشى بالذهب وقبضة محلاة بالحجارة الكريمة فاستأذنته بفحصه عن قريب فاذن لها فشهرته للحال وهجمت عليه فتراجع القهقرى وبقي يتقهقر الى ان حصرته في زاوية القاعة فقالت له: «اطلب من ربك ان يغفر لك مساوئك لانك ميت لا محالة » فارتعب الكونت لاس كازاس (رفيق نابوليون في منفاه) وخاف عليه . أما نابوليون فكان يضحك ويستهزىء بها

وكانت هذه الحادثة وأمثالها تقلق راحة حاشية الامبراطور فكانوا جميعاً ناقمين على تلك الفتاة ولا سيما لاس كازاس

وفي ذات يوم رأت بتسي نابوليون منشغلا عنها بالكتابة فاسقطت على يده دهن شمعة سائحة فاحرقت يده ولم تكتف بذلك بل هجمت على الاوراق وبعثرتها ومزقت منها ما وصلت اليه يدها . وكثيراً ما كانت تتعدى على ابن لاس كازاس وتشتم الاميرات والامراء الذين كانوا في حاشية نابوليون ولم يكن يجسر أحد ان يمد اليها يداً بمكروه

وورد في مذكراتها ان نابوليون خرج مرة من الفندق قاصداً النزهة وتبعه بعض رجاله ومعهم بتسي واختها جني . وكان الجميع سائرين الواحد تلو الآخر في طريق ضيق منحدر . وكانت بتسي تسير في مؤخرتهم فوسوس اليها شيطانها ان توقع فيهم الذعر فارتمت على اختها ودفعتها الى الامام فتساقط الجميع الى الارض الواحد بعد الآخر وفي جملتهم نابوليون وأصيب بعضهم برضوض . فخنق لاس كازاس ولم يملك غضبه فامسك بالفتاة وأخذ يضربها فاستغاثت

Digitized by Birzeit University Library

بنابوليون فخلصها منه ثم أمرته ان يمسك الكونت حتى تتمكن من ضربه فامتثل لامرها وظلت تصفعه على خديه وتخدشه باظافرها الى ان طلب منها العفو !

الختام

ولم تدم هذه الحالة طويلا فان نابوليون ترك فندق بالكومب عملا بامر حاكم الجزيرة الذي أخذ يضيق عليه فبكت بتسى لفراقه بكاء مراً

وكان بيت نابوليون في لنجود واقعاً في جهة غير مأهولة والطريق اليها وعر جداً فلم يتيسر لبتسي ان تزور صديقها الا نادراً ولم يكن في استطاعة الامبراطور مغادرة لنجود لانه كان كلما تجاوز بيته يرى الحارس الانكليزي مقتفياً خطواته فاثر ذلك في نفسه وفضل العزلة في سجنه على مشاهدة الجواسيس تحيط به من كل صوب

أما بتسى فشبت وازدادت جمالا وكثر عشاقها حتى أصبح سكان الجزيرة لا يلهجون الا بها فلما بلغت هذه الاخبار نابوليون أسف اسفاً شديداً

وكان هدسون لو حاكم الجزيرة يعرف صلة نابوليون بعائلة بالكومب فضيق على هذا الاخير واضطره الى مغادرة الجزيرة نكاية بالجنرال بونابرت (وقد كان معتاداً ان يدعوه بهذا الاسم) فسافر الى استراليا

وتزوجت بتسي بعد ذلك المستر اربل فرزقت منه فتاة ثم توفى

زوجها فابحرت الى انكلترا في سنة ١٨٣٥ واقامت في لندن وعاشت بتسي أو المسز اربل بعد ذلك عيشة فقر وتعاسة ونابها من نكد الدنيا ماحبب اليها الموت وكانت كلما مر بها الزمن تزداد تفكيراً بذلك الذي ملك العالم وكان لها اطوع من البنان

ومات نابوليون في سنة ١٨٢١ بعد ان قاسى صنوف العذاب في جزيرة القديسة هيلانة . وبعد مضي عدة سنوات من ذلك التاريخ احتفلت فرنسا بنقل بقاياه الى الانفاليد حيث لا تزال الى الآن . فاصدرت المسز اربل مذكراتها وأعيد طبعها غير مرة . الا ان هذا الكتاب لم يغنها فظلت فقيرة الى أن تولى نابوليون الثالث عرش فرنسا فمنحها أراضي واسعة في الجزائر . وماتت بتسي بالكومب في سنة ١٨٧٢

في جزيرة القديسة هيلانة

حول أيام نابوليون الاخيرة

منذ نحو مائة سنة ـ في ٦ مايو ١٨٢١ ـ لفظ نابوليون نفسه على صخرة تائهة في المحيط الاطلنطيقي بعيداً عن وطنه وأهله ومريديه ـ ما عدا نفراً قليلا من حاشيته لازمه الى الساعة الاخيرة . مات بعد ان جعل اوربا ميداناً للقتال أربع عشرة سنة هلك فيها مليونا فرنسي . مات فتنفس أعداؤه الصعداء لانهم ما كانوا ليطمئنوا ويهدأ روعهم طالما كان في ذلك الجبار بقية من الرمق ـ كأن

Digitized by Birzeit University Library

وجوده في قيد الحياة كان ينكد عيشهم ويقلق لياليهم ويضيق على صدورهم

وقد أجاد شاتوبريان الكاتب الفرنسي الشهير في وصف التأثير الذي كان لنابوليون حتى بعد نفيه اذ قال :

« ... اذا تحرك بونابرت على صخرته (اشارة الى جزيرة القديسة هيلانة) انذرتنا بحركته هزة عنيفة . فان خطوة يخطوها هذا الرجل في القطب الآخر لا نلبث ان نشعر بها في قطبنا هذا . ولو شاءت الاقدار ان تفلت آفته على الارض مرة أخرى فتجعله حراً في الولايات المتحدة (حيث أشيع انه التجأ) فانه يكفيه ان يحدق بنظره في الاقيانوس حتى تضطرب شعوب العالم القديم جميعاً فان مجرد وقوفه على الشاطىء الاميركي كان يجبر اوربا على ان تعسكر على الشاطىء المقابل له »

ولتقدير نابوليون لا بد من التميز بين الرجل الحربي والرجل السياسي . فليس من يناقش في عبقرية نابوليون وتفوقه في فنون الحرب . أما من حيث السياسة والادارة فالمؤرخون مختلفون في تقديره ومهما يكن من الامر فليس غرضنا الآن سرد سيرة هذا الجبار الذي قلب وجه العالم والحكم على أعماله ومآتيه وانما الذي نرمي اليه ايراد لمحات وجيزة توضح لنا حالته ومشاعره في منفاه . فان تلك السنوات التي قضاها نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة لمن أفجع مشاهد التاريخ وادعاها الى التخشع والاعتبار

* * *

بعد معركة واترلو الشهيرة ببضعة أيام اضطر نابوليون الى التنازل

عن العرش فتنازل عنه لابنه نابوليون الثاني المعروف بدوق ريشستاد (٢٢ يونيه سنة ١٨١٥) ـ فعل ذلك وهو يعلم حق العلم ان ابنه منفي في النمسا. ولكنه لم يشأ الاستسلام للاقدار والخضوع لها فعلل نفسه بتلك الامنية البعيدة ،

ثم صدر اليه أمر من الحكومة الموقتة بمبارحة باريس فالتجأ الى قصر الملميزون حيث أقامت جوزيفين بعد تطليقه اياها الى حين وفاتها . ولكنه لم يمكث فيه طويلا ففي ٢٩ يونيو اضطر الى الاتجاه غربا خوفا من تقدم البروسيين الذين صمموا على القبض عليه حياً أو ميتاً / فقصد ميناء روشفور بنية السفر الى الولايات المتحدة الاميركية

على انه لم يتمكن من تحقيق رغبته هذه فقد كان أمامه الاسطول الانكليزي يسد في وجهه باب الخلاص وخلفه الجيش البروسي مكتسحاً فرنسا وجاداً في القبض عليه . وأخيراً بعد التردد الاليم قرر ان يطرح بنفسه بين يدي الانكليز فكتب في ١٤ يوليو كتابا الى وصي المملكة [1] حمله اليه رسول خاص قال فيه :

« يا صاحب السمو الملكي : الآن وقد أصبحت عرضة للاحزاب التي تتنازع بلادي ولعداء أعظم دول اوربا فقد أنهيت حياتي السياسية ، وكما فعل تمستوكليس أتقدم لاقيم بين ظهراني الشعب البريطاني . واني أضع نفسي تحت حماية قوانينه وألتمس ذلك من سموكم الملكي باعتبار انكم أقوى أعدائي وأثبتهم وأكرمهم »

(١) كان جورج الثالث ملك انكلترا مصابا بالجنون فعين ولي عهده وصياً على المملكة الى حين وفاته سنة ١٨٢٠ اذ تولى الملك بنفسه

Digitized by Birzeit University Library

وكانت الحالة السياسية قد تفاقمت وخشي نابوليون الوقوع في أيدي أعدائه فلم ير مناصاً من الاسراع . ففي ١٥ يوليو في الساعة الثالثة صباحاً ركب قاربا الى السفينة « بليروفون » الانكليزية وكان ربانها القبطان ميتلند قد عرض عليه أن يوصله الى شواطىء انكلترا

ولما علمت الحكومة الانكليزية بوصول نابوليون الى بليموث أصدرت قراراً بنفي «الجنرال بونابرت» كما سمته الى جزيرة القديسة هيلانة . وقد منع رسول نابوليون من مقابلة وصي المملكة فعاد خائباً . ولما بلغ نابوليون خبر نفيه استشاط غيظاً وكتب احتجاجا بليغاً قال فيه :

«اني أحتج بشدة أمام السماء والناس على العنف الذي استعمل معي وعلى انتهاك أقدس حقوقي بالقبض الجبري على شخصي وحريتي . فقد جئت باختياري الى ظهر «البليروفون» فلست باسير انكلترا بل أنا ضيفها ...

« واني استشهد التاريخ على ذلك : فسوف يروي أن عدواً حارب الامة الانكليزية عشرين سنة فلما خانه الدهر جاء من تلقاء نفسه ليلتجيء تحت كنف قوانينها . فهل من برهان أعظم من هذا على احترامه لها وثقته فيها ؟ ولكن ماذا كان جواب انكلترا على هذه الشهامة ؟ انهم تظاهروا بمد يد كريمة مضيافة الى هذا العدو حتى اذا اسلم نفسه عن ثقة وحسن نية قدموه ذبيحة »

ولكن ذلك لم يجد . ففي ٨ اغسطس ركب نابوليون ونفر قليل من مريديه (اذ لم يؤذن للجميع باللحاق به) السفينة « نورثمبرلند »

فاتجهت بهم الى جزيرة القديسة هيلانة

ولما مرت السفينة بالقرب من شواطىء فرنسا ـ وتلك كانت آخر نظرة القاها نابوليون عليها ـ لم يتمالك أن صاح : « الوداع يا أرض الشجعان ! الوداع يا فرنسا العزيزة ! لولا بعض الخونة لظللت أنت الامة العظمى وكنت سيدة العالم أجمع »

وفي ١٤ اكتوبر سنة ١٨١٥ أي ٦٦ يوما بعد اقلاع السفينة «نورثمبرلند» شاهد ركابها نقطة سوداء قائمة في وسط الاوقيانوس. تلك كانت جزيرة القديسة هيلانة . وفي اليوم التالي القت السفينة مرساتها ولم ينزل نابوليون ورفاقه الى البر الا بعد يومين

ولم يكن أولو الشأن قد أكملوا المعدات لسكنى نابوليون في البيت المخصص له (واسمه «لونجوود») فاضطر الى النزول في دار المستر بالكومب وهو تاجر انكليزي كان يقيم في تلك الجزيرة مع عائلته. وقد وجد نابوليون سلوى في معاشرة تلك العائلة الطيبة وكان له مع ابنة المستر بالكومب المسماة بتسي حوادث غريبة تبين تعلقه بتلك الفتاة وقد نشرنا في هذا الكتاب فصلا عن « نابوليون وبتسي » فيه من النوادر والقصص ما تلذ مطالعته ويدل على محبة ذلك الرجل العظيم المنكسر القلب لتلك الفتاة الجميلة الرقيقة الشعور

ولما انتهت أعمال الترميم التي قام بها أولو الشأن في منزل « لونجوود » انتقل اليه نابوليون وحاشيته (في ٨ ديسمبر من تلك السنة) . وقد كان هذا المنزل على ارتفاع ٢٠٠٠ قدم عن سطح البحر وكان شديد التعرض للزوابع والامطار كثير الرطوبة في معظم

Digitized by Birzeit University Library

السنة . وكان قبلا شبه مخزن كبير لتجار « شركة الهند » . وبالجملة ان تلك الاقامة لم تكن لتلائم نابوليون بل كأنها هيئت لتقصر في أجله

وكان نابوليون يقضي معظم سهراته على مائدة الطعام فاذا فرغ من الاكل طالع بصوت عال بعض آثار راسين أو كورنيل أو موليير. وفي النهار كان يقضي الوقت في المطالعة والتنزه فى عربة أو على فرس وفي فلاحة بستانه وكان أيضاً يصرف جانباً من وقته في املاء مذكراته على بعض أفراد حاشيته

على أن الحكومة الانكليزية لم تلبث ان أبدلت حاكم الجزيرة الاميرال كوكبرن بحاكم ثان . لانها اعتقدت أن الاول كان يكثر من ملاطفة نابوليون ويغالي في اكرامه فاحلت محله « السير هدسن لو » وكان شرساً قاسياً ومنذ رآه نابوليون نفر منه نفوراً شديداً وظل الرجلان على أشد الكره والعداء طول زمن النفي

وكان السير هدسن لو كثير الاضطهاد لنابوليون فضيق عليه وأحاطه بالجواسيس حتى سئم نابوليون تلك العيشة وآثر البقاء في منزله. ولكن السير هدسن لو أراد الدخول عليه فلم يطق نابوليون صبراً وانتهره بشدة ومما قاله له : « اذا شئت انتهاك حرمة داري كما هددتني بذلك فاعلم انك لن تستطيع ذلك الا اذا مررت على جثتي »

فغضب الحاكم من جرأة نابوليون وضاعف عليه التضييق ومنع عنه كل رسالة كتابية أو شفاهية من أهالي الجزيرة ولم تسلم اليه الرسائل الآتية اليه من الخارج الا بعد اطلاع المراقبين ولم يسمح

له بمطالعة شيء من الصحف الفرنسية والانكليزية الى آخر ما هنالك من وسائل الاضطهاد والتعذيب

واحتدم الجدال بين نابوليون والحاكم مراراً. ومما قاله نابوليون مرة : « ان لك السلطة التامة على جسدي ولكن لا سلطة لك على نفسي. فان هذه النفس لا تزال أبية جريئة كما كانت حين خضعت لها اوربا . . لا تمثل أمامي الا حين تأتيني بامر قتلي فحينئذ تنفتح لك جميع الابواب »

ولكن بالرغم من تهديدات نابوليون جرب السر هدسن لو الدخول الى داره مرة أخرى فحالما أبصر به نابوليون صاح فيه : « انسحب يا هذا . انسحب » واذ رأى الحاكم مصراً على الدخول نهض فاختطف بندقية كانت مع أحد أتباعه وصوبها اليه مهدداً بالقائه صريعاً اذا تقدم خطوة أخرى. فلم ير السر هدسن لو مناصاً من الانسحاب

ولم تلبث صحة نابوليون ان تأثرت من حالته وبيئته وما ناله من الاضطهاد فاخذت تسوء سنة بعد سنة وكان السرطان قد تملك منه وازدادت آلامه وأوجاعه فشعر ان أجله غير بعيد

ففي ٢ افريل سنة ١٨٢١ أي قبل وفاته بنحو شهر قيل أمامه ان مذنباً ظهر في الليلة السابقة فى جهة الشرق فما كان منه الا ان صاح قائلا : « ان ظهور مذنب أنذر بموت يوليوس قيصر ! » . ولم تكن فكرة الموت لتزعجه ومن أقواله : « ليس في الموت شيء مروع فلقد كان رفيق وسادتي في بضعة الاسابيع الماضية وهو الآن يهم باختطافي الى الابد »

Digitized by Birzeit University Library

ولم تخدعه أقوال طبيبه وتعازي حاشيته . وبينما كان الطبيب يطمئنه يوماً ويخفف عنه ـ شأن الاطباء في هذه الاحوال ـ اعترضه قائلا : « لا توهمني ! اني عالم بحقيقة الامر ومستسلم للقدر »

ومما قاله أيضاً لرفاقه قبيل موته : « عند ما أموت سيتعزى كل واحد منكم بالعودة الى اوربا وسوف ترون أهلكم وأصدقاءكم وفرنسا !... أما أنا فاني ملاق أبطالي ـ أي نعم! ان كليبر ودسيكس وبسيار ودوروك وناي ومورات ومسينا وبرتيه سيأتون جميعاً لملاقاتي ! فاذا رأوني جنوا من الفرح . وسوف نتحدث معاً عن حروبنا وأعمالنا العظيمة ... »

وفي ٢٨ من ذلك الشهر أفاق نابوليون بعد ليلة قضاها في التوجع فأعطى الطبيب انطو ماركي الذي كان بجانبه التعليمات الآتية :

« بعد موتي ـ ولا إخال ميعاده بعيداً ـ اريد أن تفتح جثتي . . وأن يستخرج قلبي ويحفظ ليحمل الى حبيبتي ماري لويز في بارمه ... ثم اذهبوا الى رومه وقابلوا والدتي وأهلي وقولوا لهم ان نابوليون العظيم لفظ النفس الاخير على هذه الصخرة ، في أتعس الحالات وأشقاها ، محروماً من كل شيء ومتروكا لنفسه وللمجد ! »

ولم تكن الايام التالية إلا نزاعا بين الموت والحياة في ذلك الجسم المهزول . وقد قام نابوليون قبل موته بجميع واجباته الدينية وفي صباح يوم ٥ مايو تحرك نابوليون حركة خفيفة ثم سمع الحاضرون

كلمات متقطعة لفظ بها عن غير وعي مثل « رأس .. جيش ... » ولم تمض عشرون دقيقة حتى بدا على شفتيه زبد أبيض فعلم الحاضرون أن الامبراطور الكبير انتقل الى العالم الآخر

* * *

وكان نابوليون قد ذكر في وصيته ما يأتي : أريد ان ترقد رفاتي على ضفاف السين بين الشعب الفرنسي الذي أحببته حباً جماً ! »

ولكن ملوك أوربا خافوا من تلك الجثة الهامدة فلم يرضوا بنقلها الى فرنسا في ذلك الحين . ثم تبدلت الاحوال وتولت الحكم في فرنسا حكومة حرة فأمرت بنقل بقايا نابوليون الى فرنسا . فذهب وفد خاص الى جزيرة القديسة هيلانة وأتى برفاته الى أرض فرنسا فاحتفل به الشعب الفرنسي احتفالا عظيما لم يعرف له مثيل في التاريخ كما هو مذكور في الفصل التالي

رجوع نابوليون الى فرنسا

كيف نقلت جثته من جزيرة القديسة هيلانة الى شواطىء السين

توفي نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة سنة ١٨٢١ فدفن فيها . وكان قد أوصى قبل وفاته أن تنقل رفاته الى شواطىء السين ليرقد رقدته الاخيرة « بين الشعب الفرنسي الذي أحببته حباً جماً »

Digitized by Birzeit University Library

على أن أحكام السياسة قضت عليه أن يبقى مدفوناً في تلك الجزيرة الجرداء تسع عشرة سنة كانت شهرته في أثنائها تزداد انتشاراً بين جميع الطبقات يتناقل قصصه قاطنو الاكواخ وساكنو القصور على السواء ويتغنون جميعاً بعظمته ومجده وجلاله . كان اسم نابوليون اذ ذاك في ذروة علاه . وقد قال فيه فيكتور هوغو :

« سوف تنقشع الغيوم من سماء مجدك ، فلا حائل يحول دون اشعاعه الصافي ، وسيخيم اسمك فوق تاريخنا كله ، كالقبة الزرقاء »[1]

ومما زاد مقام نابوليون عند الجمهور حالة الارتباك الذي وقعت فيه فرنسا وهبوط مكانتها في عالم السياسة والحرب من بعده . فاصبح نابوليون بطل الوطن باسره يمثل في عيون الشعب كل ما بلغته فرنسا من رفعة وهناء . ولذا كان لنقل جثته من جزيرة القديسة هيلانة الى شواطىء السين وقع عظيم في نفوس الفرنسيين اذ احيى هممهم وذكرهم بسالف مجدهم وسؤددهم . بل كان لهذا الحادث صدى في الدول الاوربية كلها . قال هنري هيني الشاعر الالماني الشهير :

(١) هذا هو الاصل الفرنسي :

Les nuages auront passé dans votre gloire;
Rien n'en troublera plus le rayonnement pur.
Elle se posera sur toute notre histoire
Comme un dôme d'azur.

« ان جثة جبار القديسة هيلانة تتقدم نحونا من بعد بخطوات منتظمة كأنها تهددنا تهديداً »

أما مقدمات ذلك الحادث العظيم الشأن فاليك مجملها :

في صباح أول مايو سنة ١٨٤٠ (وهو عيد القديس فيليب) توجه الوزراء معاً الى قصر التويلري لتهنئة الملك لويس فيليب بعيده . فبادر الملك تيرس رئيس وزرائه بقوله : « أريد ان اقدم لكم هدية لحلول هذا العيد : انتم تودون استرجاع رفات نابوليون الى فرنسا ، فقد رضيت بذلك . فاتفقوا مع الوزارة الانكليزية . وسنرسل البرنس جوانفيل الى جزيرة القديسة هيلانة لهذا الغرض »

وكان كثيرون قد اقترحوا نقل رفات نابوليون الى فرنسا وقدموا العرائض لذلك ولكنهم لم يفلحوا . وأولها عريضة قدمت بعد موت الامبراطور بثلاثة أشهر فقط ، ثم قدمت عريضة أخرى سنة ١٨٣٠ وعريضة سنة ١٨٣٤ وأخرى سنة ١٨٣٦ . فذهبت تلك المساعي أدراج الرياح . أما سنة ١٨٤٠ فقد رأى اولو الامر أن يسترضوا الشعب ويلهوه عن الارتباك الداخلي والخارجي بتلبية طلبه

وقد كان غيزو اذ ذاك سفير فرنسا في لندن فقابل لورد بالمرستون (وكان رئيس الحكومة الانكليزية) وفاتحه في ملتمس فرنسا فقبل الطلب . وفي ١٢ مايو سنة ١٨٤٠ أعلن الخبر في مجلس النواب الفرنسي فقوبل بين أشد مظاهر الحماسة من جميع الاحزاب

Digitized by Birzeit University Library

على ان الاحزاب المناوئة للحكومة الافرنسية ما لبثت ان استغنمت تلك الفرصة لرفع أصواتها وتشديد مطالبها حتى خشيت الحكومة عاقبة ذلك الهياج . وكانت الحكومة قد فتحت اعتماداً بمليون فرنك لتنفق في هذا السبيل فلما عينت لجنة للنظر في طرق انفاق المبلغ المذكور رأى أعضاؤها انه لا يكفي وطلبوا مليوناً آخر . ففتح اكتتاب عام في الجرائد للحصول على ذلك المليون فتهافت الكثيرون لسد هذا النقص ولا سيما اتباع نابوليون الذين كانوا لايزالون أحياء ومنهم الجنرال جروبوا الذي باع بيته بمبلغ ٢٠٠٠٠ فرنك فكرس ١٥٠٠٠ منها لتكريم امبراطوره ولكن الاكتتاب مع ذلك لم يف بالمطلوب اذ لم يجمع سوى ٣٠٠٠٠ فرنك

ثم تضاربت الآراء في تعيين المكان الذي يقام فيه الاثر التذكاري فاقترح البعض كنيسة المادلين ، واقترح آخرون البنتيون ، وغيرهم عمود فندوم ، وعرض سواهم أن يوضع قبر نابوليون في رأس قوس النصر المعروف بالاتوال ، ومنهم من فضل وضعه في وسط ميدان الكونكورد الفسيح وتسمية ذلك الميدان بميدان نابوليون . أخيراً اتفقت الآراء على وضعه في قصر الانفاليد الذي يضم مفاخر فرنسا الحربية. وقد ختمت المناقشة وتقرر المشروع في مجلس الاعيان في ٦ يونيه

وكان رئيس البعثة المكلفة نقل الرفات البرنس دي جوانفيل وهو من الاسرة المالكة ومعه كونت جارناك ممثلا للحكومة الفرنسية ومعظم رفقاء نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة الذين كانوا لا يزالون أحياء ولا سيما الجنرال برتران والجنرال جورجو

(ما عدا مونثولون الذي كان عائشاً في انكلترا ، والكونت دي لالس كاز الذي امتنع عن السفر لكبر سنه ولكنه أوفد ابنه مكانه) وقد ركب الجميع سفينة حربية من أحسن سفن الاسطول الفرنسي واسمها بل بول Belle - Poulle فابحرت بهم في ٧ يونيو الساعة ٧ مساء من ميناء طولون قاصدة جزيرة القديسة هيلانة

وفي ٧ اكتوبر أي بعد ثلاثة أشهر سمع الراكبون بحريا يصيح «الارض» فعلم الجميع انهم أصبحوا على مرأى من الجزيرة المقصودة فاستولى عليهم شعور الرهبة والخشوع

وفي ٩ اكتوبر الساعة الحادية عشرة صباحاً نزل البرنس جوانفيل والبعثة كلها الى البر بصفة رسمية فتوجهوا الى منزل الحاكم حيث وجدوا سلحفاتين عظيمتين كانتا هناك منذ زمن نابوليون وهما لا تزالان حيتين الى هذا اليوم . ثم انتقلوا الى القبر ثم الى منزل نابوليون في لونجوود فوجدوا الحيطان تكسوها كتابات كتبها الذين زاروا المكان ومعظمهم من جنود نابوليون وأتباعه . ومن تلك الكتابات الجملة الآتية وهي تدل على تعلق رجال نابوليون بسيدهم :

« استخدم ميشيل روبر الذي كان جنديا في الحرس على الباخرة امالیا ليتمكن من السلام على منزل كابوراله الصغير [1] . الوداع »

وظلت البعثة الى يوم ١٤ اكتوبر تقوم بزيارات مختلفة وتشترى

(١) كان يعرف نابوليون بهذا الاسم بين جنوده petit caporal

Digitized by Birzeit University Library

لوازمها. وفي ليل ذلك اليوم استعدوا لاخراج الجثة . ولم يحضر هذا العمل الا أعضاء البعثة الفرنسية وقباطنة السفن الفرنسية الثلاث : بل بول وفافوريت واورست

وقد كان ذلك الليل شديد البرد . ففي منتصف الليل دخل الجميع الى داخل الحديقة التي كانت تحوى رفات نابوليون . وعند الصباح أزاحوا حجراً ضخماً كانت موضوعا فوق القبر وقد استلزم نقله خمسين رجلا . وفي الساعة التاسعة صباحا شهد الجميع التابوت وكان مؤلفاً من أربع طبقات: طبقة من الخشب وطبقة من الرصاص فطبقة من الخشب وطبقة من الزنك

فلما فتح التابوت لمح الجمهور شبه جثة وقد كانت مغطاة بطبقة من القطن فاخذ طبيب البعثة يلف ذلك القطن مبتدئاً من عند الرجلين واذا بالحاضرين قد استولى عليهم الهلع لانه تراءى لهم ان الجثة تتحرك ! ! والحقيقة هي انه لما أخذ الدكتور يلف القطن دخل الهواء في التابوت فحرك بعض الاقمشة الرفيعة الشفافة التي كانت مكتنفة الجثة

أخيراً ظهرت الجثة بتمامها ولم يكن فيها تشويه كأن نابوليون كان نائماً . قال أحد الحاضرين :

ان ملامح نابوليون لم تكن متغيرة ما عدا تشويهاً طفيفاً عند أسفل الانف وفي الخدود ... وكأن وجهه ازداد اسمراراً. وكان رأسه محلوقا كبيراً وعيناه مغمضتين . أما الفم فقد حفظ شكله بل كأنه حفظ ابتسامته أيضاً . ورأى الحاضرون على صدره الوشاح الاكبر لجوقة الشرف ووسامات مختلفة وكان بين الرجلين وعاءان من الفضة

فيهما قلب نابوليون ومعدته الخ ...

وبعد أن شهد الجميع هذا المنظر المؤثر أقفل التابوت وقد استلزم نقله الى العربة ٤٣ رجلا ثم سار الموكب الى السفينة بل بول فقصفت المدافع بثلثمائة طلقة متتابعة

أما العودة فاستغرقت ٤٣ يوما. ففي ١٨ اكتوبر أبحرت السفينة بل بول تكتنفها السفينتان الاخريان. ولم يحدث في الطريق مايستحق الذكر الا هياج المسافرين لما بلغهم ارتباك الحالة السياسية فى اوربا وامكان دخول فرنسا في حرب مع الدول الاخرى بشأن المسئلة الشرقية

وفي ٢٩ نوفمبر وصلت السفن الى ميناء شربورغ فاضطرت الى الانتظار ريثما يتم الاستعداد في باريس للاحتفال . فانتظرت ثمانية أيام ثم انتقل النعش من شربورغ الى الهافر على السفينة نورماندي على أن تتم الرحلة بطريق نهر السين الى باريس . ففي الهافر نقل النعش الى مركب نهري مسطح اسمه دوراد نمرة ٣ . فتوجه المركب بالنعش نحو باريس

وقد حدث هذا السفر بين أعظم مظاهر الحماسة من الشعب . وفي صباح ١٤ ديسمبر وصل النعش الى رصيف كوربفوا في باريس . وقد كان البرد قارساً إذ هبط الترمومتر الى ١٤ درجة تحت الصفر

على ان البرد لم يكن ليمنع أهل باريس من القيام فى منتصف الليل. فتوجهت الجموع نحو قصر الانفاليد وعند الفجر كانت الموسيقى تصدح ثم قصفت المدافع وقرعت أجراس الكنائس . وكانت

Digitized by Birzeit University Library

الطرق ممتلئة بالباقين من جيش نابوليون وكلهم بملابسهم العسكرية تكريماً لامبراطورهم . وقد كان البرنامج يقضي بان يأتي أولئك الجنود خلف المستشارين ومندوبي البلديات في تشييع النعش . ولكنهم رفضوا قائلين « ان الامبراطور كان يسير دائما بين حرسه » فاحتاطوا بالنعش ولم تستطع قوة اقناعهم بالتنزل عن رغبتهم

وقد كانت الطرق ممتلئة بالجموع والشرفات والابواب مجللة بالسواد وكان الشعب يصيح « ليحي نابوليون » و « ليحي الامبراطور » . وكان النعش محمولا على عربة يجرها ١٦ فرساً والتابوت على اعلاها يحمله ١٤ تمثالا مذهباً لآلهة النصر

أما الحماسة التي أبداها الشعب فى ذلك النهار فتفوق التصور حتى انه في المساء كانت الشوارع ممتلئة بالقبعات والشالات والجزم وقطع من الاثواب مما يدل على شدة التزاحم . وأخيراً تبددت الجماهير وهي تغني المارسلياز

اختبارات نابوليون

مستخلصة من اقواله المأثورة

كل ساعة تضيع في الشباب هي عامل للشقاء في المستقبل

* * *

لا يبرز الرجل في الحياة الا اذا سيطر على خلقه الذي منحته

اياه الطبيعة وهذبه بالتربية والتعليم وعرف ان يكيفه بحسب العقبات التي تعترضه

* * *

لا يحسن المرء الا ما يصنعه بنفسه

* * *

شر الناصحين حب الذات

* * *

ليس أصعب من البت في الامور

* * *

لا ينجح من كان كثير التردد

* * *

سر النجاح أن يعرف الانسان كيف يكون جريئاً تارة وحذراً تارة أخرى

* * *

تقف عظائم الحوادث على أتفه الامور فانما الحاذق من استفاد من كل أمر ولم يهمل أدنى الاشياء وأحقرها مما قد يزيد أمله في النجاح . وقد يفشل الانسان من جراء ازدرائه باحد هذه الاشياء

* * *

ليس بين الفوز والفشل الا خطوة واحدة وقد علمتني الحوادث العظيمة أن أخطر النتائج تترتب على أتفه الاسباب

* * *

Digitized by Birzeit University Library

لا يعرف للمستقبل قيمة من كان شجاعا مقداما

* * *

انما البطل من رفع نفسه عن مستوى الحوادث الدنيوية بحيث لا تمسها بسوء

* * *

لا تحكم على الناس إلا بالنظر الى أعمالهم

* * *

ان نكران الجميل في نظري أشنع عيب يوصم به قلب الانسان

* * *

الاعمال الدنيئة ـ دون سواها ـ محورها المصلحة الذاتية

* * *

لدى الجنس البشري فضيلتان عظيمتا الشأن يجدر بهما كل تبجيل واحترام وهما الشجاعة في الرجال والعفة فى النساء

* * *

ليس في الحب انتصار إلا بالفرار

* * *

كلما تقدمت في السن زاد اقتناعي بان لكل انسان مقدوراً ليس له منه مفر

* * *

على صاحب القيادة أن يجمع بين الاخلاق والذكاء . فلا يصلح لها من كان كثير الذكاء ضعيف الاخلاق فانه أشبه شيء بسفينة

فاقدة التناسب بين شراعها وثقلها . وخير للقائد أن يكون قوي الاخلاق قليل الذكاء

* * *

ليس البشر بشراً في نظر مؤسسي الممالك بل هم آلات توصلهم الى أغراضهم

* * *

على من يطلب تولي الحكم أن يخاطر بحياته وأن يعرض نفسه للقتل عند الاقتضاء

* * *

ليست العروش الا ألواحاً خشبية مغطاة بالمخمل

* * *

انما الحذق في السياسة اقناع الشعوب بانها حرة . . . والشعب واحد في كل مكان. فهو اذا ذهبت سلاسله لا يكره العبودية ولكن اذا انكشفت له من خلال خرق شقائه يتململ ويتذمر ويهب لكسرها فينجح بقحة وتقضي مطامعه على الملوك

* * *

ان التردد للحكومة كالشلل لاعضاء الجسم

* * *

أساس السلطة فائدة الخاضعين لها

* * *

أول ما يجب تجنبه ليس ارتكاب الخطأ بل التناقض في الخطط .

Digitized by Birzeit University Library

فانما تضيع السلطة بالتناقض

* * *

على رجل السياسة أن يضع قلبه في رأسه

* * *

إذا حللت الحرية السياسية وجدت انها قصة يخترعها الحكام للمحكومين

* * *

لا يستطاع ايقاف الشعوب متى اندفعت الى الامام

* * *

ان أعاظم الرجال الذين غيروا وجه الارض لم يتوصلوا الى ذلك بالتأثير على الخاصة بل باستهواء الجماهير

* * *

الرجل الذي يقود حزبا ضعيفاً أثناء الاضطرابات يلقب بزعيم العصاة. فاذا فاز وأتى أعمالا عظيمة ونهض بقومه وبلاده فانه لا يلبث أن يسمى قائداً أو ملكا... أما إذا فشل فانه يظل ذلك الزعيم القائم على السلطة وربما انتهت حياته بالاعدام

* * *

ان خلاص الشعوب يستلزم أموراً لا يستلزمها خلاص الافراد

* * *

قد تموت السلطة من التخمة

* * *

فى الحرب كما في السياسية لا تستعاد الفرصة المضاعة

* * *

ما أعظم سلطان الخيال على الانسان ! فان هؤلاء البحارة الانكليز (في جزيرة القديسة هيلانة) لم يعرفوني ولم يروني في حياتهم ولكنهم سمعوا عني فقط ومع ذلك ما كان أشد حماسهم واستعدادهم لاتيان أي شيء من أجلي لو استطاعوا ... أجل لاريب ان الخيال يحكم العالم

* * *

الرجل العظيم يظل رابط الجأش فسواء أمدح أم ذم فانه يوالي سيره في طريقه

* * *

العبقرية لا تنتقل بالوراثة. فمنذ وجد العالم لم أسمع عن شاعرين عظيمين أو رياضيين عظيمين أو فاتحين عظيمين أو ملكين عظيمين أحدهما كان ابن الآخر

* * *

على الفاتح أن يعرف جميع الاديان وطرق ممارستها . فعليه أن يكون مسلماً في مصر وكاثوليكياً في فرنسا - أعني بذلك ان يحمي كلا الدينين

* * *

أسهل أن تحكم البشر عن طريق رذائلهم من أن تحكمهم عن طريق فضائلهم

* * *

Digitized by Birzeit University Library

من أعطى عن جدارة فقد أحسن ولكن من أعطى بلا حساب فقد أفسد

* * *

خير طريقة لحفظ كلمتك هي ان لا تقيدها قط

* * *

ليس من الحكمة مقاومة العادات غير الضارة وان تكن مستهجنة

* * *

الصفح واجب فلا يحسن بالانسان ان يحفظ الحقد والضغينة في صدره بل يجدر به أن يعرف ضعف الطبيعة البشرية ويغض الطرف عنها بدلا من أن يحاربها

* * *

اني أحب السلطة . ولكني أحبها كما يحب صاحب الفن فنه ـ أحبها كما يحب الموسيقي آلته ليستخرج منها أنغاما وألحاناً متوافقة

* * *

لا قيمة للجيش الا برأسه

* * *

ان اشارة يأتيها قائد محبوب خير من أبلغ الخطب

* * *

وجود القائد أمر ضروري . فانه رأس الجيش بل هو الجيش كله . فالذي أخضع فرنسا ليس الجيش الروماني بل يوليوس قيصر

كما ان الرعب الذي استولى على رومية لم يحدثه الجيش القرطاجني بل هنيبال

* * *

ليس ما هو أهم في الحرب من وحدة القيادة . فمتى كان العدو واحداً وجب أن يقاتله جيش واحد على خط واحد تحت قيادة رئيس واحد

* * *

قائد رديء خير من قائدين حاذقين

* * *

ان الصفة الاولى التي يجب أن يتحلى بها القائد هي رباطة الجأش . . . فعلى القائد أن يكون ذا عقل هادىء يتلقى التأثيرات الخارجية برزانة ويقدرها تمام قدرها فلا تبطره الاخبار الطيبة ولا تذهله الاخبار السيئة بل يضع كلا منها موضعه بلا زيادة ولا نقصان

* * *

حق الذكاء مقدم على حق القوة بل لاقيمة للقوة بلا ذكاء . ففي الازمنة الاولى كان الاقوى يتولى القيادة أما في العصور المتمدنة فانما يتولاها الاذكى

* * *

القائد الذي لا ينظر الى ساحة القتال بعين جافة يسبب قتل الكثيرين عبثاً

* * *

Digitized by Birzeit University Library

لن تجد عملا من الاعمال العظيمة المستديمة ناشئاً عن الصدفة أو البخت وانما تتأتى تلك الاعمال عن العبقرية وحسن التدبير . وقلما يفشل أعاظم الرجال حتى فى أخطر مقاصدهم . انظر الى الاسكندر وقيصر وهنيبال وغيرهم فهل أصبحوا عظماء لان التقادير مهدت لهم سبيل العظمة ؟ كلا . بل لان عظمتهم هي التي حكمت على التقادير

* * *

الرجال كالارقام تختلف أقدارهم باختلاف مواضعهم

* * *

ليست الثورة إلا فكرة وجدت أسلحة تخدمها

Digitized by Birzeit University Library

DC/203.8/.Q512/1931

المؤلف :

عنوان الكتاب : قصص نابليون ...

اسم المستعير	تاريخ الارجاع
92-130	02 -12- 1996

Date Due تاريخ الاعادة

02 -12- 1996
26 -04- 1997
14 -05- 1997
8 -10- 1997
30 -10- 1997
17 -12- 2005

Digitized by Birzeit University Library